راحيل

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: راحيل**

❖ **المؤلف: أسماء سعد عبد الحميد**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 80112 / 2021**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 1 - 008 - 994 – 977 – 978**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00455**

❖ **مراجعة لغوية وتدقيق:ببلومانيا**

❖ **لوحة الغلاف: ببلومانيا**

❖ **التنسيق الداخلي: ببلومانيا**

❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

❖ محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

راحيل

رواية

أسماء سعد عبد الحميد

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
www.bibliomaniapublishing.com

2021

© جميع الحقوق محفوظة

(مستوحاة من أحداث حقيقية، وليست بسردٍ لتلك الأحداث).

إهداء إلى:

كل من نظروا إلى الدنيا بعينٍ زاهدة، وإلى الآخرة بعينٍ راضية.

لا يوجد وهمٌ يبدو كأنه حقيقةٌ مثل الحب...

ولا حقيقةٌ نتعامل معها وكأنها الوهم مثل الموت، فليس هناك أمر مؤكد أكثر من الموت، ومع ذلك لا نفكر أبدًا بأننا سنموت، وإذا حدث وفكرنا لا يتجاوز تفكيرنا وهمًا عابرًا عبور النسيم..

د/مصطفى محمود.

(١)

في أول الخريف... لا تزال الأمطار تتساقط غزيرة قبيل الأصيل، لتعلن عن بداية ليلة أشبه بليالي الشتاء، قارسة البرد، حالكة الظلمة، ومن وراء زجاج نافذة أغلقها أصحابها ليمنعوا دخول المطر الذي تساقط مائلًا بفعل الريح، في مبنى قديم وسط القاهرة، تقف فتاة في مقتبل العمر تترقب الطرقات التي لا يُسمع فيها وقع أقدام.

-راحيل؟!

لم تجب راحيل، فكررت مريم النداء مرة أخرى بصوتٍ أعلى فزعت له راحيل، فأجابت بغضبٍ:

-إيه يا مريم؟! فزعتيني.

-ما أنا بكلمك من الصبح ومش بتردي.

عادت راحيل لمراقبة الطرقات مرة أخرى، وهي تقول:

-عايزة إيه دلوقتي؟!

-مفيش، بس كنت بسألك عن التمثال ده، جبتيه منين؟

تبسمت راحيل ساخرة دون أن تدير نظرها إلى مريم، وتساءلت:

-عايزاه؟!

قالت مهللة:

-أكيد.

التفتت راحيل وقالت بصوتٍ يغلب عليه رنة الضحك:

-مستحيل أسيبه.

أخذت راحيل التمثال من مريم ووضعته فوق سطح مكتبها، ثم توجهت نحو النافذة مرة أخرى تتوسل إلى الله، عسى أن تكف تلك الأمطار عن الهطول كي تتمكن من الرحيل، لكن كيف لها ذلك ومازالت الأمطار غزيرة والسماء متكاثفة؟!

حينها كان يجوب صوت دقات الساعة الخامسة شقة لا يجلس فيها سوى سيدة على مشارف الخمسين من عمرها وابنتها الشابة سعاد، أزاحت سعاد ستار النافذة التي كانت تقف بها، وقالت لأمها وهي تحكِم إغلاق النافذة:

-المطرة مش راضية تقف.

أجابت نجلاء:

-مع إننا النهارده لسه في نص الشهر... ولسه في بداية الخريف.

-الجو غريب صحيح، بس راحيل حترجع إزاي؟

قالت نجلاء:

-أكيد حاتتصل إنتي عارفة راحيل.

رنن جرس الباب فأسرعت نحوه سعاد، بعد أن جذبت حجابها الكائن على مقعد المائدة القريبة من الباب:

-أكيد راحيل.

-ما لو هي راحيل لبستي الطرحة ليه؟

قالت، وهي ممسكة بمقبض الباب تعتزم فتحه:

-الشك...

-شقة أستاذة راحيل صادق؟

كانت تلك هي كلمات ساعي البريد لسعاد فأجابته بالتأكيد وتسلمت الخطاب، ثم أغلقت الباب، وقالت لأمها:

-جواب لراحيل أنا زهقت من استلام الجوابات.

أجابت نجلاء في عصبية:

-أنا مش عارفة هي بتعمل إيه بالجوابات دي كلها، حطيه مع إخواته على الترابيزة اللي جنبك وروحي شوفي المطرة وقفت ولا لسه؟

-لسه يا مريم.

قالتها راحيل التي يأست من توقفها فالتفتت لزملائها الجالسين في الغرفة الخاصة بها في جريدة (القارئ) باسمة الثغر، وألقت بنظرة خاطفة عليهم، في اليسار تقف مريم بالقرب من مكتبها ممسكة بذلك التمثال تتفحصه من جديد، وعلى الأريكة الموجودة باليمين يجلس عماد وبجانبه أحمد، وبالقرب من باب الغرفة يقف شاب في أوائل العقد الرابع من عمره ينظر في ساعة يده، ويقول:

-الساعة عدت خمسة، وشكل المطرة مش هتقف الليلة دي... فشكلنا حنكمل الليلة هنا.

انتفض أحمد من مجلسه، وقال:

-إزاي يا صالح، لو مروحتش النهارده مش هعرف أدخل البيت تاني.

أطلق صالح ضحكته المتحفظة، وقال:

-أنت بتخاف، مظنتش فيك كده أبدًا... ولا إيه رأيك يا راحيل؟

ارتبكت راحيل وتلعثمت الكلمات في فمها، وقالت وهي تتكئ على كل حرف:

-ولا أنا ظنيت إنه ممكن يكون بيخاف من مراته.

قال أحمد (مستنكرًا):

-مش للدرجة يا جماعة، بس هي بتزعل لو اتأخرت عليها.

ربت عماد على كتفه، وقال ساخرًا:

-ما أنا عارف، فعشان كده أنت أول واحد حا تتصل بالبيت وبعدك راحيل.

في أثناء ذلك فتح كامل باب الحجرة، وقال:

-وصالح فين من كل ده؟!

-أنا أهو يا ريس.

-أنا مش بسأل على مكانك ما أنا شايفك، أنا بسأل مش حاتتصل بحد؟!

-لأ، حيتصل بالاتنين.

تركت مريم التمثال، وقالت مازحة تجيب زوجها:

-لأ، الاتنين أجازة الحلاقين.

-عماد شوف شغل جديد ليك ولمراتك.

خرج كامل (رئيس التحرير) من مكتب راحيل ومن خلفه مريم وزوجها مهرولان، فقال عماد:

-أكيد بتهزر يا ريس.

-ومين قال كده؟

-مريم قالت لي إنك.....

وابتعد صوتهما مع إغلاق مريم لباب مكتب كامل بعد أن سبقها للداخل هو وزوجها، كان مجرد موقف عابر سيمر مثلما مرت كل مواقفهما السابقة، فلقد اشتهرت هي وزوجها منذ اليوم الأول الذي بدأ كل منهما عمله بالجريدة بخفة الروح، وسرعة البديهة، وحبهما للفكاهة، حتى استنتجت راحيل بفطنتها المعتادة أنهما لابد أن يتزوجا في يوم من الأيام، وقد كان ما حسبته راحيل.

-طب مع السلامة أنا بقى يا جماعة.

قالها أحمد وهو ناهض من مجلسه، فالتفت إليه صالح الواقف بالقرب من مكتبه، وقال:

-على فين العزم؟!

-لمكتبي بما إني مش حعرف أروح، أخلص الشغل اللي ورايا هنا.

غَادَرَ أحمد الغرفة ولم يتبق في داخلها سوى راحيل وصالح، تلك هي اللحظة التي انتظرتها راحيل، أسرعت نحو التليفون

وجذبت السماعة وضغطت على الأزرار ببطء، فهي لا تخشى أن يسمع صالح الحوار الدائر بينها وبين مدير دار نشر شهيرة قد اتفقا على نشر كتابها الأول، تعتذر له عن عدم حضورها اليوم لسوء الطقس، ولِمَ تخشى؟! فذاك صالح الذي ما لبث إن وطأت أقدامه الجريدة حتى دخل في عداء معها لأفكارها التي تختلف عن أفكاره، كانت تراه إنسانًا من حديد البسمة لاتزور وجهه إلا قليلًا، وقد مر ما يقارب عام من اليوم الذي أخبرهم فيه أستاذ كامل بأن الشيخ صالح سينضم إليهم، ودوامه سيكون لأيام محددة ليباشر عمله كأحد كتاب الرأي الواجب عليهم تصحيح المفاهيم الدينية في أذهان القرّاء بعد الأحداث الإرهابية التي وقعت في إحدى محافظات الجنوب خلال العام الماضي، وقد اتخذ كامل من غرفة راحيل مكتبًا آخر لصالح حتى يتشاركان نفس المكان، لكن أفكارهما كانت مختلفة إلى حد كبير، وقد كان ما رمى إليه كامل.

وبعد أشهر تحول حديث صالح مع راحيل إلى شيءٍ من الرقة التي لم تعهدها من قبل، فتلعثمت كلماتها في الحديث معه وهي التي اشتهرت بلباقة الحديث، بدأت في الهروب من مجهول، هربت من القلب الذي بدأ يهفو ويخفق كنسيم الصيف نحو صالح وهي التي كثيرًا ما لعنت كل قلب ساذج موهوم أورد

صاحبه مورد الهلاك، كان الحب في نظرها هو منتهى الهلاك، على الرغم من ذلك كانت تثق بأنه لن يوشي بما سمع عند رئيس التحرير، لا لذلك الحنان المتدفق منه نحوها في خلال الأيام الماضية لكن لأنها كانت ترى فيه شيخًا يخاف الله ولن يفعل ذلك، حتمًا إذا علم كامل ما ستفعله راحيل من نشر كتابها الأول (الطريق للملكوت) في دار نشر أخرى غير التابعة للجريدة، سيغضب ويثور ويُنهي مسيرتها في العمل الصحفي، على رغم كونها على ثقة بتسارع الجرائد بالعروض السخية للعمل مع أحدهم إذا ما تحقق ظنها، لكنها ارتبطت بذلك المكان وبرائحته وأصوات زملائها، فكيف لها أن تنسى أول أيام عملها بالجريدة التي شهدت شهرتها وأحلامها التي باتت تتحقق، وكان من أحلامها ذلك الكتاب، ولها من الأسباب ما يبرر ذلك، فلقد أرادت أن تنتشر كلماتها في أنحاء القطر العربي من خلال دار شهيرة تتيح لها ذلك الانتشار وهو من غير الممكن الوصول إليه إلا من خلال الدار التي اختارتها.

انتهت راحيل من المكالمة، ثم أخبرت نجلاء نيتها بالانتظار في الجريدة حتى الصباح الباكر في مكالمة أخرى انسحب في نهايتها صالح، ذهب إلى مكتب عماد وأحمد كي يقيم معهما فيه تلك الليلة.

مرت الليلة وراحيل جالسة في مكتبها مع مريم بعد أن أحكمت إغلاق بابه، مكثت مفكرة، تتذكر أول ما دار بينها وبين صالح من نزاع بعد قدومه للجريدة بأيام قليلة، حينما قال لها بجفاء:

-كنت فاكرك شخصية أنضج من كده... بتحسب الكلمة قبل ما تقولها مش عفوية للدرجة دي، على رغم إن كتاباتك عميقة لكنك بالعكس منها.

أجابته حانقة:

-وهو المفترض أبقى عاملة إزاي عشان أطابق بين عمق الكلمات والصورة اللي في ذهنك وبين الواقع...أبقى زيك مثلًا! تساءل في غضب:

-وهو أنا عامل إزاي يعني؟

-معرفش.

خرج كامل عن صمته، وقال:

-هو احنا في اجتماع ولا خناقة في محكمة الأسرة، وبعدين أنا صدعت منكم...اطلعوا بره ومش عايز منكم مقالات الأسبوع ده ...أنا هقفلها وأخلص.

تبسمت راحيل لقول كامل وأسلوبه وعزمت الخروج من غرفة المكتب وصالح بجوارها على بعد أمتار، توقفت عند باب المكتب وسمح لها صالح التقدم في الخروج، لكنها بعفويتها المعتادة، قالت:

-لأ يا شيخ، حسب شريعة موسى أنت الأول.

حاول أن يكتم ضحكة توشك في الإفلات من بين شفتيه، وقال:

-إنتي متأكدة إنك الكاتبة راحيل صادق؟

(٢)

في وقتٍ مبكر من صباح تلك الليلة الممطرة، حيث مازالت آثارها على الجدران وفي الطرقات، يقف أسفل المبنى العتيق كل من كان في الجريدة ليلة أمس، استند كامل إلى سيارته بظهره، وضغط جبينه بإبهامه وسبابته محاولًا طرد الإعياء الذي حل به، وقال في غير اكتراث:

- النهارده أكيد أجازة.

وأشار إليهم، وقال:

- روحوا ارتاحوا.

بدأت الشلة تنفض رويدًا رويدًا، ولم يتبق إلا اثنان هما راحيل وصالح الذي وقف بجوار سيارته، وقال بنبرة حانية:

- ممكن أوصلك يا راحيل.

أجابته ممتنة:

- شكرًا يا صالح، حركب أي مواصلة، مش عايزة أتعبكمعايا.

- ولا تعب ولا حاجة، الفرق اللي بينا شارعين بس.

- خليها مرة تانية.

- متفقين؟

هزت راحيل رأسها بالتأكيد، مما دفع صالح للاستسلام وتوديعها، تحرك بسيارته وراحيل تلاحقه بنظرها حتى اختفى عن عينيها، بدأت تقطع تلك الطرقات ممسكة

بمظلتها ذات اللون الأزرق، مسبلة الأعين، تسير في خطى ثابتة، فهل تندم على فرصةٍ كانت من الممكن أن تؤكد لها صدق ما تشعر به نحو صالح وما يشعر به هو نحوها؟ إحساس قلما شعرت به، فما سبق من مشاعر كانت مؤقتة، أما دقات قلبها نحو صالح مختلفة يملأها الخوف من الاندفاع في طريقٍ مجهول على رغم البشاشة والسعادة التي تملأ وجهها كلما رأته أو شعرت بطيفه بالقرب منها، لكن عقلها نفى حتى قلبها شرع في دفن تلك المشاعر، فلم يستطع، وباتت تبعث من جديد كلما سمعت صوته.

حضر الأوتوبيس بعد مدة من الوقت استغرقتها في التفكير بصالح، كانت العربة تكاد تكون خالية في ذلك الصباح الباكر، اتخذت مجلسها بجانب النافذة مستغرقة في التفكير حتى وصلت إلى المحطة المرجوة، ارتقت درجات سلم مبنى قديم الطراز مكون من خمسة طوابق متعددة النوافذ يكسوها اللون الأبيض المائل للاصفرار، وهي تدندن بخفوت:

- بعدك على بالي... يا قمر الحلوين... يا زهرة تشرين..

قاطع غنائها صوت سعاد وهي تفتح لها الباب، وتقول:

- تشرين...تشرين...بقالك شهر هوسانا بتشرين.

تساءلت هامسة، وهي تخلع حذاءها ووشاحها الملفوف حول عنقها:

- قوليلي، فين نجلاء؟

- نايمة.

- طب جت رسايل جديدة؟

- بصي قدامك على الترابيزة حتلاقي كتير قدامك... تعبت من استلامهم.

وجهت راحيل نظرها نحو المنضدة الكائنة بجانب الباب، المملوءة برسائل القرّاء والقارئات التي باتت تتسلمها كل يوم منذ اليوم الذي أصبحت فيه كاتبة شهيرة، قالت مندهشة:

- هما كتير كده؟!

حتى وقع نظرها على خطابٍ كُتب عليه بخط مألوف لها: "من فارس"، فهتفت في ذهول:

- عمي فارس!

توجهت نحو غرفتها حيث يملأ ضوء الصباح أركانها، أغلقت من خلفها بابها، خلعت حجابها وجلست عند أطراف فراشها، وبدأت تقرأ تلك الرسالة التي جاء فيها:

"صديقتي راحيل:

أكتب إليكِ الآن بعد أن انقطع عنكِ صوتي منذ اليوم الذي انتقلت فيه إلى هنا في أسوان، أحببت أن تكون عودتي من

خلال هذه الرسالة، لأن ما سأخبرك به الآن ليس بالأمر الذي يسهل قوله... لكن أحاول أن أوضحه إليكِ في تلك اللحظة".

جذبت كلماته انتباه راحيل، فتراجعت بجسدها حتى جلست متربعة على الفراش... وأكملت القراءة:
في إحدى مقالاتك كنتِ تخبري فيها القارئ بأن..
كل ما يتبادر إلى أذهاننا من تفسيرات نحو الغموض الذي نراه أحيانًا في تلك الحياة، قد تكون صحيحة إلا في حالات قليلة يمكن أن تحصى منذ بدء الخليقة، وقد يُغير فهمها الصحيح مجرى حياة الفرد، أحيانًا يدفعه للخير أو الشر، ونادرًا ما يجعله في مفازةٍ من الدنيا والآخرة.

عندما قرأت تلك الكلمات، حدثت نفسي بأنني لا علم لي بالمصير الذي تنتظره أفكاري، لأنني بحكم دراستي وعملي عقلاني لا أصدق إلا ما أراه أمامي ولا اهتم سوى بالماديات، وغير ذلك كذبة، وهم، أي مبرر يمكن أن أنفي به ما أرى من أشياء يراها البعض أسرار تلك الحياة...كما تعلمين.
منذ اليوم الذي انتقلت فيه للعمل هنا وأنا مشدد، تهاوت كل معتقداتي وشرعت بناء معتقدات جديدة، لكن تهاوت هي الأخرى، فخلعت نعلي وبدأت التحرك في طريقٍ مجهول، كان أول يوم لي في تلك القرية وبيتي الجديد طبيعي للغاية،

أخذت أساعد هناء في ترتيبه، كنت أنتقل من غرفة إلى أخرى أكتشفها؛ لأن الغموض فرصة ينتظرها كل عفريت كي يوهمنا بكل ما هو غريب.

سكن الليل بعدما أنهكت قوتي طيلة اليوم، كنت في حاجة إلى الراحة، خيل إليَّ أنني إذا ما ارتميت على فراشي سأذهب في نومٍ عميق، لكن طيلة الليل صاحبني أرق شديد ولم أنم، أتقلب ذات اليمين وذات الشمال وأنا على نفس الحال، والغريب هناء في سُبَاتٍ عميق، بعد لحظات سمعت صوتٍ يعلو بقول:
- "واحد حي". وتفوح مع تلك الكلمات رائحة عطر ملأت الروح بالقشعريرة، والعين بالدموع، وذهبت بالجسد في إغماءةٍ حتى شروق شمس الصباح.

تتابعت الأيام لا تحمل جديدًا، بدأت عملي في المستشفى دون أن يحدث شيء غير مألوف سوى رائحة البخور والرجل الذي يعلو صوته بالتسبيح، مع دقات الساعة الثانية صباحًا يأتي الصوت وتتبعه الرائحة فأذهب في نومٍ عميق، ازداد شكي نحو ذلك الصوت وأخذت الأفكار تطاردني كل مساء، لكن ذلك الرجل يقطعها بصوته، مع مرور الأيام، بات الرجل دالًّا على الساعة بدلًا من أن تدل هي على قدومه، خيل إليَّ أن هيئته تشبه "دراويش السينما" نفس التصور الذي يمكن أن

يتجسد أمام عين كل من يقرأ تلك الكلمات، ولأن عقلي رفض أن يقتنع بذلك الوضع الغريب، وقلبي يتملكه الخوف الشديد ، قررت أن أنتظر قدومه.

أمام البيت جلست ليلًا منتظرًا أن يمر، ومشاعري متذبذبة بين شوق لرؤيته وبين رهبة الموقف، وبينما أنا على ذلك الحال دقت الساعة الثانية، سمعت صوت الدرويش، وداعبت خياشيمي رائحة البخور، رأيت دخانه لكن لم أرَ سواه، فلا يوجد درويش ولا غير الدرويش، الطريق فارغ وليس به شيءٍ سوي الدخان، هرب النوم من عيني في تلك اللحظة وتوجهت للبيت، وأخذت أردد وأنا أغلق بابه:

- وهم... أرق... قلق، ربما! لكن ليس بشيءٍ خارق، صعدت درجات السلم وأنا حائر، عقلي يحاول نفي ما حدث، وقلبي يتزايد خوفه.

مرت الليلة وكانت تلك الليلة هي أصعب الليالي التي مررت بها في حياتي، أصعب حتى من الليلة التي انتظرنا فيها معًا في المطار، عقارب الساعة مثبتة والنهار يأبى الإشراق، وبين ذاك وذاك تتصارع عيني التي ترغب في الراحة، مع عقلي الذي يأبى الراحة حتى يُبصر الحقيقة، وأنا بينهما جسد لا روح فيه، بعد ساعات ذهبت إلى المستشفى، جسدًا مرهق، وعقلًا

مشدد، وعينًا تزداد احمرارًا، أشير إلى زملائي من بعيد من دون أن أرى من أوجه إليه الإشارة.

جلست على مكتبي دافن وجهي بين كفوفي، وذهبتُ في غفلةٍ أيقظني منها صوت زميلي صادق وهو ينادي، رفعت وجهي وأخذت أفتح عيني بثقل، وأنا أتساءل بصوتٍ ضعيف:

- ماذا تريد يا صادق؟

جلس أمام مكتبي، وقال:

- لا شيء... لكن حالتك اليوم غريبة، هل أنت مريض؟

- لا، لكنني مرهق.

تركني وعزم الذهاب لكنه توقف عند باب الغرفة قليلًا، والتفت لي، وهو يقول:

- أخبرني، هل رأيت الشيخ الجيوشي؟

- من الشيخ الجيوشي هذا؟ وأين أراه؟

- كثيرًا ما تتساءل، فهذا يؤكد أنك لم تره.

تركني والحيرة تملكني، وأتساءل من يكون الشيخ الجيوشي هذا ألا يكفي الدرويش، ومن هنا ربط عقلي بين الدرويش والشيخ الجيوشي، ورجحت أن الجيوشي ربما هو الدرويش، عدت إلى البيت فاستقبلتني زوجة عمك بابتسامة عريضة، وقالت برنة سعادة:

- الشيخ الجيوشي بشرني بصبي.

- من الذي بشرك؟!

كررت قولها:

- الشيخ الجيوشي.

فلقد تكرر ذلك الاسم على مسامعي للمرة الثانية في اليوم ذاته، فأي صدفة هذه؟ طلبت منها أن تقص لي ما حدث، فسردت:

- في وقت الظهيرة طرق الباب وكان به جارتنا السيدة فاطمة، طلبت مني أن أذهب معها عند الشيخ الجيوشي لأنه طلب حضوري معها اليوم، لبيت طلبه دون تردد، وصلت معها إلى بيتٍ بسيطٍ في نهاية القرية، دخلت من بابه وإذ برجل على رغم اسمرار وجهه إلا أنه منير، يقول:

- تقدمي يا هناء.

جلست أمامه فطلب مني أن أقص له ما رأيت ليلة أمس في منامي، وبعد أن قصصت عليه المنام، قال: - اذهبي فإن الله سيرزقك بصبي بإذنه هو سبحانه.

- هل أخبرتي أحداً من قبل بذلك المنام؟

- لا، لم أتعودذلك بل أتناسى المنام بعد لحظات... عدا ذلك.

- وأين السيدة فاطمة؟

- تسكن في البيت المقابل لنا.

طلبت من هناء أن تحضر السيدة فاطمة حتى أعلم منها قصة ذلك الدرويش، جاءت السيدة فاطمة وقصت لي في سلاسة وحكمة:

- لقد كنت في علم الغيب عندما حدث ما سوف أقصه عليك الآن، لكن ذلك وصلني من أمي ومن جدتي رحمهما الله، كانت أمي تقول عنه:

- رجل كريم، قلبه كبير، أحبه الجميع، قصته تبدأ منذ سنواتٍ بعيدة حينما حل بقريتنا القديمة قحطٌ شديد مات على إثره الكثير، حتى حضر عراف إلى القرية سأله بعض الغاوين عن موعد انتهاء ذلك القحط؛ فنبأهم بأن هناك مولودًا كريمًا سيولد بعد يومين لأم فقيرة مات زوجها ومازال الجنين في بطنها في ذلك المكان، "مشيرًا إلى الأرض التي يجلس عليها وهي أرض فضاء"، تعجب المستمعين من ذلك، وتابع قوله:

- بميلاده سينتهي القحط من البلاد..

اختفى ذلك العراف بعد ساعات من قدومه، وبعد عدة أيام استمع أهل القرية إلى سيدة تصرخ في ذلك المكان الذي أشار إليه العراف، كانت تضع وليدها في ذلك الوقت، أكرمها أهل القرية حينها إذ رأوا فيها تحقيق نبُوءة العراف، كان ذلك الطفل هو الشيخ الجيوشي، بعد سنوات اختفى الجيوشي أو

فارس لا أدري أي مسمى هو الأسبق له، وفي أثناء غيابه صدر قرار تهجيرنا من بلدتنا الأصلية إلى هنا.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري، حينما رأيت أهل القرية يستعدون للرحيل في زحامٍ كأنه يوم الحشر، في ليلة تتشح بالسواد حزينة على فراق أرضنا تلك، تركنا النيل، والنخيل، والبيوت الكبيرة المزخرفة، وجئنا إلى هنا ومعنا سيدة عجوز قالوا عنها إنها أم فارس، تعودنا الإقامة وبدأ أهلنا في نقل تراثنا إلى تلك القرية، وبعد عشرين عامًا من التهجير، في ليلةٍ كان القمر فيها بازغًا، سمعنا صوتًا مناديًا، يقول:

- لقد عاد فارس.

ومنذ ذلك الحين وهو يقطن بيتًا في آخر القرية، يسكنه ويستقبل فيه السائلين، وكل من له حاجة.

قصة غريبة كادت تؤكد لي أن الدرويش هو الجيوشي، ومع مرور الأيام اختفى الدرويش ولم تظهر أي من الأمور الغريبة، حتى جاء اليوم الذي أخبرتني هناء فيه بصدق حديث الجيوشي بعد سنوات حرمان من الأطفال، تسرب الشك إلى قلبي؛ فتوجهت إلى بيت السيدة فاطمة كي أتبعها إلى بيت الجيوشي، ذهبت معها إلى دار في آخر القرية وتركتني عند بابها، وقالت:

- أكمل طريقك، فهنا ستجد كل ما تريد.

وانصرفت.

دلفت أنا من الباب فشعرت بنفس تلك الرائحة التي غرُبت عني منذ مدة، بدأت في التحرك حافي القدمين، ومن حولي يجلس أناسي لا تنصرف أعينهم عن المصاحف المستقرة بين أيديهم، وغيرهم مسبحون، والبعض ساجدون وكأني في الملأ الأعلى، وبين هؤلاء أبصرت شيخًا كبيرًا في السن طلب مني الجلوس بعد أن جلس مستنداً إلى حائط ورائه، جلست أمامه خائفًا مترقبًا، وسألته بحذر:

- أنت الجيوشي أم الدرويش؟

تبسم بسمة رقيقة، وقال:

- أنا الاثنين.

ثم صمت لبضع لحظات، قال بعدها:

- وأنا أيضًا فارس، اسمي نفس اسمك لكن قدري لم يكن قدرك، بل النهاية واحدة، نهاية حياة وبداية أخرى تتناسى معها كل ما مضى حلوه بمره، لأنك فيها لا تقوى على أن تميز بين الحلو والمر، فتلك الحياة تنسيك معنى المر وتغترف منها معاني أسمى.

- ولِمَ أنا دون غيري؟!

تبسم ساخرًا، وقال:

- يا فارس أنت لست الأول ولا الأخير، الكثير جاءوا إلى هنا دون أن يعلم أحد سواهم وأنت واحد من هؤلاء، وجهلك بوجود

غيرك راجع لبعد هؤلاء عن الحياة، فلا تتعجب... فهناك أسرار للحياة لا يمكننا أن ندركها بعقولنا، فالعقل دون قلب كالجسد بلا روح.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت دار الجيوشي ملجئي في كثيرٍ من الأحيان، أنصت فيه لصراخ قلوب هؤلاء الدراويش من فرط العشق، أما صباح يومي في المستشفى أستمع فيه لصراخ المرضى من فرط الألم، وأنا بين هؤلاء لا أعلم مستقرًا، أرسل إليكِ ذلك الخطاب الطويل وأنا على ثقةٍ بأن تلك الكلمات ستملأ قلبك شوقًا إلى هذا المكان، أنتظرك يا راحيل في أقرب فرصة، أود رؤيتك يا صديقتي حتى نبحث معًا عن أصل ذلك السر.

انتهت راحيل من قراءة تلك الرسالة الطويلة في ذلك الصباح الباكر حيث لم تتجاوز الساعة العاشرة، ثم خلدت إلى النوم، أما صالح رفض النوم دون أن يُنهي عمله كما اعتاد، استغرق في كتابة مقاله الأسبوعي حتى قرُب موعد صلاة الظهيرة، أسرع نحو المسجد ينادي للصلاة بصوته الرخيم، وبعد أن فرغ من الصلاة انصرف إلى بيته الذي يبعد بضعة أمتار عن المسجد، وبعد أن عاد انسحب إلى فراشه يريح ذلك الجسد الذي أجهده السهر طيلة الليل، أغمضَ عينيه ثم أخذ

يتقلب في الفراش، ذهب في غفلةٍ قصيرة استيقظ منها كأنه يخشى النوم، ولِمَ لا يخشاه وفي كل ليلة أمسى طيفها زائرًا له في منامه، لا لأن قلبه تعلق بها منذ أن جاذبته أطراف الحديث وأبصر بسمتها الهادئة، الجميلة، بل لأنها تذكره بأمه التي تشابهت معها في كثيرٍ من ملامح الوجه حتى الابتسامة، وكان ظهورها في حياته بعد سنوات من رحيل أمه عن الحياة، بعدما أصابها ألم خبيث عانى معه طيلة تلك السنوات، ولم تشفع لها تلك المعاناة أمام الموت فرحلت مثلما رحل أبوه منذ سنوات كثيرة عدل عن إحصائها، لا يتذكر هيئته، ولا صوته، وكل ما تبقى له تلك الصورة القديمة التي يحتفظ بها في إحدى (أدراج الشفونيرة)، وكلما حاول أن يتذكر أباه نظر إلى وجه أخيه هاشم الذي لم يتقاطع وجوده في الحياة مع حياة أبيه، رحل ومازال هاشم عَلَقة في رحم أمه، لكنه ورث منه ملامح الوجه.

بعد بضع دقائق كان فيها السكون هو سيد تلك الغرفة التي خيم عليها الظلام، ولم يتبق سوى شعاع من نور الشمس تسلل لداخلها من شرفتها، نهض صالح من فراشه، وهو يقول:

- راحيل.

حاول مرارًا أن يكف عن رؤيتها في منامه لكن الأمر خارج عن إرادته، متروك لقلبه وعقله، ولا سبيل للتخلص من رؤيتها في

نومه سوى بقتل تلك المشاعر، هذا ما تبادر لذهنه في تلك اللحظة التي استيقظ فيها بعد ما هتف باسمها، اعتدل في فراشه وحدث نفسه، قائلًا:

- لازم أنساها، لابد إني أخلص من كابوسها، وكل اللي بحسه ده وهم أكيد وأنا اللي كبرته...مستحيل راحيل تكون بالصورة المثالية اللي تخيلتها... أكيد لو قربت منها حتتمحي الصورة دي، وكرر قوله:

- أكيد!

في تلك اللحظة كانت راحيل تستقبل مكالمة تليفونية من صديقتها حياة، تقف بالقرب من المنضدة القائمة بجانب غرفة خالتها نجلاء في ذلك البيت الساكن كالمعتاد، وعلى يمينها تقف ابنة خالتها وصديقة عمرها سعاد التي تقاربها في العمر، اللهم إلا أشهر قليلة جعلت راحيل بمَنزلة الشقيقة الكبرى لسعاد.

- راحيل فينك؟ بسأل عليكي من الصبح وإنتي نايمة.

قالتها حياة بلهجتها المرحة، فما كان من راحيل إلا أن أجابت بصوتٍ ضعيف:

- كنت تعبانة شوية لإني منمتش طول الليل.

- ليه؟

راحيل في لهجة طبيعية:

- موضوع طويل مش قادرة أحكي، احكي إنتي وأنا سامعة.

- طب طالما كده عايزة أقولك إني مسافرة أسوان.

- على طول كده من غير مقدمات؟!

- شغل ومجبرة.

- وإنتي من امتى حتى بيجبرك على حاجة؟!

قالت حياة وهي مسترسلة في الضحك:

- من أول امبارح الصبح.

راحيل بعصبية تخالطها الابتسامة:

- طالما كده وسعي وشك عشان أقفل.

- استني يا راحيل... استني.

قالت في هدوء مفتعل وهي تتكئ بيدها على المنضدة المستقر عليها التليفون:

- خير.

- هقولك أنا ليه مجبرة.

- قولي يا فاضية.

- فاكرة يوم ما قولتيلي تخيلي وتوقعي.

تساءلت راحيل ببرود:

- وبعدين؟!

- اختاروني مرشدة سياحية ل...

قاطعتها راحيل بقولها:

- أمال كنتي إيه الأول... بياعة بطيخ؟!

- راحيل، اسمعي للآخر، مش كل كلمة تردي بعشرة قدمها.

- حاضر، كملي.

- قصدي أقولك إن مهدي جي مصر، عشان يحضر تعامد الشمس على وجه رمسيس.

راحيل:

- في القاهرة؟

- ركزي معايا يا راحيل، بقولك مسافرة أسوان، يبقى أكيد في أسوان مش محتاجة ذكاء، وهو أصلًا الشمس بتتعامد على تمثال رمسيس اللي في القاهرة....؟!

قالت:

- وبعدين!!!

- أنا عارفة إنك مش بتحبيه ومش ذنبه، أنتِ اللي مش بتحبي تسمعي أي حاجة عن بلده .

راحيل ببرود:

- طب.

قالت حياة في عصبية:

- روحي نامي، أنا الغلطانة إني قولتلك، لما تفوقي هبقى أطلعلك.

هذه حياة صديقة راحيل وجارتها، هي الحياة بكل ما نتمناه من سعادة، مرح، جمال، جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا صَدَاقَة قدِيمَة، عندما عادت راحيل من العراق في أثناء المرحلة الثانوية، وعند

عودتها اكتشفت تلك الجارة التي انتقلت مع والديها إلى نفس البناية التي تقطنها راحيل، دائمًا ما تشاركا الحديث ووجد كل منهما في الآخر الأنيس، ولم يفترقا إلا مع اختلاف آمالهما وأحلامهما، التحقت راحيل بكلية الآداب قسم الفلسفة في حين انضمت حياة إلى كلية الآثار، على الرغم من ذلك كانت صداقتهما مستمرة، وكلما تقدم بهما العمر اشتدَّ ذلك الرباط قوة! ومن يدري إن كان سيستمر أم لا! هل يستطيع الزمن أن يمزق ذلك الرباط؟ أم تمزقه أحلامهما؟ فكثيرًا ما حلمت حياة بذلك الرجل الناضج، الحليم، لبق الحديث، واكتفت برؤيته من خلف شاشة التلفاز ومتابعة أخباره من خلال الجرائد، فهو سياسي مشهور في إحدى البلاد العربية، ظلت كذلك لمدة تتمنى رؤيته وأخبرت راحيل بذلك، فما كان من راحيل إلا أن طلبت منها التمني، وقالت:

- اتمني وتخيلي، لأن تعلقك ده ليه حكمة ممكن متكونش باينة دلوقتي، لكن مع الأيام حاتعرفي.

- ولو قابلته؟

- افتكري كلامي ده، واضحكي واشكري ربنا إنه حققلك حلمك.

وقد تحقق ما تمنته بعد ما تم اختيارها مرشدة له في إحدى زيارته لأسوان؛ ليشهد تعامد الشمس على وجه الملك رمسيس الثاني في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر لعام ١٩٩٨م، وفي

تلك اللحظة تذكرت راحيل وقولها وحكمتها، فما كان منها إلا أن أسرعت كي تخبرها بذلك، وقد كان بعد معاناة طويلة من البحث عنها، وبعد أن انتهت المحادثة بينهما توجهت إلى غرفتها وبدأت في ترتيب حقيبتها بخفةٍ وطيش وهي تغني بصوتٍ مرتفعٍ زعجت له والدتها، فأسرعت إليها، وقالت:

- حياة، أنا تعبت من صوتك، اهدي شوية.

قالت باستسلام:

- حاضر

ثم أكملت الغناء بصوتٍ منخفض:

وعمري ما أشكي من حبك، مهما غرامك لوعني... لوعني، لكن أغير... أغير من اللي يحبك...

- إيه؟ نسيت... نسيت!!

(٣)

ومنذ تلك اللحظة والأيام تمر متتابعة لا تحمل جديد إلا ما شاء الله من الأحداث البسيطة التي لا تعكر صفوها، على الرغم من ذلك لم يشعر أحد بتلك النعمة التي مُنحت لهم إلا حينما أبصروا ضياعها، تناسوا ثم نسوا، وظنوا أن الحياة هكذا وأنها لن تتبدل، تذكروا أن مع العسر يسرًا ولم يدركوا أن مع اليسر عسرًا، وتلك هي الحياة لو دامت لنا على الوجه الذي نتمناه ما تمنينا زوالها، وألقى القلة بأنفسهم في العذاب المقيم كي يتخلصوا منها.

في صبيحة يوم الخميس الخامس، عشرة من أكتوبر، أسرعت راحيل نحو مكتبها وبدأت تلملم ما عليه في عجل وتضعه في حقيبتها، ولم تترك على المكتب سوى تمثالها الصغير الذي تعلقت به يوم أن عثرت عليه منذ عامين، حينما طرق المجهول باب شقتها، فأسرعت إليه بعد أن جذبت حجابها من فوق المقعد الموضوع بجانب الباب كما اعتادت عند سماع صوت دقاته، فوجدت ذلك التمثال مستقرًا أمام الباب فحملته للداخل، تصورت أن حياة هي من جلبته إليها كهدية كما اعتادت أن تجلب لها ما تتمنى نظرًا إلى تنقلها بين مناطق كثيرة في مصر وفقًا لطبيعة عملها، وعندما أخبرتها راحيل بالعثور على ذلك

التمثال أمام باب الشقة وأنها ممتنة لفعلتها تلك، أقسمت لها حياة غير حانثة بأنها لا تعلم عنه شيئًا، حتى ظنت وما زالت تظن بأن هناك روحًا خفية جلبته إليها، وفي أثناء وقوف راحيل أمام مكتبها، شعرت بأنفاس مريم بجانبها، فسألتها:

- نعم يا مريم، في حاجة؟!

- على فين يا راحيل؟

قالت وهي تغلق حقيبتها، ولا تملك إلا أن ترفع كتفيها في يأس:

- مش عارفة لسه، بس أكيد حالاقي مكان تاني.

- وليه؟!

- زي ما سمعتي وكله سمع.

ثم وجهت نظرها نحو الباب حيث يقف صالح الذي ما لبث أن وصل إلى الجريدة في تلك اللحظة، وتساءل مستفسرًا:

- خير في حاجة؟

قالت مريم:

- بعد إذنكم، حارجع لك بعدين.

راحيل في نفاد صبر:

- استني يا مريم.

ثم وجهت نظرها نحو صالح مرة أخرى، وهي تقول:

- ولو عايز تعرف اللي حصل يا شيخ، التقطت أنفاسها، وأكملت:

- اطردت.

تساءل متعجبًا:

- وليه؟!

- عشان في حد بلغ أستاذ كامل إني حاطبع كتابي في دار نشر تانية.

ونظرت حولها فلم تجد مريم التي أسرعت في الذهاب، تركت صالح ساكتًا كأنه يستجمع شجاعته، ثم قال:

- ومين اللي قاله؟!

بنظرة متشككة قالت راحيل:

- مش عارفة والله.

وكان قسمها حقًا، لأنها حتى تلك اللحظة تثق بصالح وتعلم بأنه لن يفعل ذلك في يومٍ من الأيام، لكن الشك تسرب إليه من نظرتها هذه، وحينما عزمت الذهاب واتجهت نحو باب المكتب، أسرع صالح وحال بينها وبينه، وقال:

- على فين يا أستاذة؟

طرقت ببصرها إلى الأسفل وساد الصمت لمدةٍ من الوقت، كل شيء ساكن حولهما، وصالح لا يزال عابس الوجه ينظر إلى راحيل التي ابتعدت بضع خطوات للخلف، كسر الصمت، وقال:

- ردي يا راحيل، قوليلي رايحا فين؟!

- زي ما أنت شايف يا شيخ، أنا مش فاهمة عصبيتك دي ليه.

تلعثمت الكلمات في فمه، وقال بعد تردد:

- لإنك اتهمتيني إن أنا اللي قلت للأستاذ كامل.

- بص، أنا موجهتش ليك اتهام...غريبة صحيح.

قال:

- بس عينك بتقول كده.

تسَرَّبَت من بين شفتيها ضحكة مريرة ساخرة، وقالت:

- العين ملهاش لسان، وأنا لو في نفسي حاجة بقولها مش بخبي...بعد إذنك يا شيخ لإني مستعجلة.

انفلت عائدًا إلى مكانه في هدوءٍ، اتخذ مجلسه بالخلف من مكتبه متظاهرًا بالانشغال... ألقت راحيل بنظرة خاطفة على الغرفة ودلفت إلى الخارج وهي تحمل حقيبتها، تسير في خطواتٍ متثاقلة بالممر الذي يفصل بين الغرف وقد لمعت عيناها بالدموع، توقفت للحظات أمام الجريدة تنتظر الأوتوبيس لكنه لم يأتِ، طالت وقفتها أمام الجريدة التي يقف بشرفتها صالح يراقب راحيل الساكنة، الهادئة، التي أعياها طيلة الانتظار، فما كان منه إلا أن التقط مفاتيح سيارته من فوق المكتب وأسرع إلى الخارج هابطًا الدرج في عجل حتى توقف أمامها يلتقط أنفاسه، وأطلَقَ زفرة حارة، وقال:

- أستاذة، ممكن أوصلك؟

صمتت للحظة تخلصت خلالها من جمودها، وقالت في رقة:

- ممكن.

اتخذت مجلسها بالمقعد الخلفي للسيارة تراقب الطرقات من نافذتها، تتذكر ذلك اليوم الذي أمسكت فيه بقلمها وأوراقها

وبدأت تكتب أول مقال لها، تلك الليلة التي انتظرت صباحها حتى تذهب إلى المطار وتتسلم جثماني والديها مع عمها، كانت ليلة طويلة دفنت بداخلها الحزن والألم وبدأت تكتب وهي مرتعشة اليد، مقروحة الجفن، تجلس بالخلف من مكتبها صامتة واجمة، وأمامها تجلس حياة تحاول أن تخفف من ألمها، لكنها استغرقت في إغفاءةٍ مملوءة بخليط من الأحلام رأت فيها والديها يدقون باب البيت لتستيقظ منها وشعور الغربة يتملكها، لا تدري أين هي! ولا في أي زمن تكون! تضاعف عمرها في تلك اللحظة وكأنها أصبحت في الأربعين منه، وجاء صباح ليلتها وهي على ذلك الحال، ومعها تجلس حياة لا تتحدث ولا تتحرك، تخشى أن يكون صوتها مصدر إزعاج لراحيل المجروحة، كانت تفضل أن تبقي راحيل على تلك الحالة حتى تنتهي إجراءات الدفن، وبعدها يحدث ما يشاء الله.

- أستاذة راحيل، مالك ساكتة؟

قالها صالح متعجبًا وهو لا يزال يقود السيارة، يوجه حديثه إلى راحيل الجالسة بالمقعد الخلفي، ثم عاد يقول ورنة الإخلاص في صوته:

- أستاذة عايزك تكوني واثقة إني مقلتش لحد على موضوع النشر.

قالت ببسمة مصطنعة وهي تهم النزول:

- واثقة.

دخلت من باب البيت وهي تهز رأسها عجبًا من حال صالح الذي تبدل بعدما تعودت منه الشدة والجفاء.

تحرك بسيارته متألمًا لبُعدها، وهو الذي ظن أن ما يشعر به وهم حاول التأكد منه مرارًا، أخذ يسير بسيارته في طريقٍ غير مألوف، كان يحس برغبةٍ شديدةٍ في الاختلاء بنفسه بعيدًا عن بيته، مر من أمام البيت ولم يتوقف بل أكمل طريقه مفكرًا في أمره مضطرب الوجدان، تمنى لو التقاها مرة أخرى وطال بينهما الحديث، كي يسألها عن حياتها السابقة وأحلامها لما هو آتٍ، يقص عليها ألمه ويخبرها عما يكنه بداخله نحوها من امتِنانٍ قبل أن يصرح بحبه لها، يخبرها بأن كلماتها كانت تمده بالقوة والصبر والإيمان، في أيامٍ عانى فيها المرض، والفقد، والضعف، ولم يكن إيمانه وتوحيده ليقوى إلا بكلماتها التي اعتَادَ قراءتها كل يومٍ في الجريدة، كان يشعر أن تلك المقالات ما هي إلا رسالة إليه تمده بالأمل والحياة، حتى قراء آخر مقال لها وترك الجريدة على المنضدة الموضوعة بجانب أمه، كانت جالسة على مقعدها، شاحبة الوجه، ضعيفة الجسد، ولا تملك سوى بسمتها التي توجهها إليه كي تشعره بأنها في حالة جيدة، لكن في تلك الأثناء بهتت الابتسامة، وتجمدت أطرافها، وقالت في صوتٍ ضعيف:

- صالح.

- نعم يا أمي.

بهت ووجم وارتعش جسده خوفًا من الرحيل، وقال مرة أخرى:

- أمي نعم.

عادت لحديثها، قائلة:

- حامشي زي ما كلنا بنمشي... مش فارقة إذا كان دلوقتي أو بعدين... حتى لو بعد تسعين سنة برضه هتزعل.

أمسك يدها محاولًا أن يقبلها، لكنه شعر بها تنسحب من يده، فأعاد نظره إليها فابتسمت بسمتها الأخيرة، وتابعتها بآخر قولها:

- المرض ده جالي عشان ينقيني من الذنوب، وأرجع لربنا من غير أي وزر، ودلوقتي اتخلصت من كل الذنوب وحاروح تاني لربنا.

تلى قولها أسرار لم يسمعها سوى صالح، ورأتها هي، وشهد عليها رسل الله، أيحزن لفراقها؟ أم يسعد لمقامها؟ أو يستبشر لما هو آتٍ؟ بعدما أيقن في تلك اللحظة أن الله هو الرحمنالرحيم، فلم يكن يدري أي من هذه الأمور يجب أن يشغله، لكن شغلته الوحدة بعد الرحيل، فمضت هي إلى مقامها ومستقرها إلى أن يشاء الله، ومضى هو حزينًا، مجروحًا، لطيم الأب والأم، كره حديث راحيل وكلماتها لأنها باتت تذكره بذلك اليوم المشؤوم، وعندما التقاها بعد عامين من الرحيل أعادت لذهنه

صورة أمه، لا لمقالتها التي كان يقرأها في أثناء مرضها، لكن لملامح الوجه التي تشابهت معها كثيرًا، حتى كاد يجزم بأن أمه بُعثت من جديد في صورة شابة ممتلئة بالحيوية والمرح كما عادت أمه لها في آخر لحظة في حياتها.

عاد إلى بيته بعد ساعات من قيادة سيارته في الطرقات دون هدف، تركها أمام البيت وارتقى درجات السلم في وقارٍ وهيبة، كان البيت ساكنًا كما تعوده منذ سفر أخيه، جلس على مقعد أمه وأمسك السُّبْحَة الخاصة بها وأخذ يُسَبِّحُ و يَتَنَسَّم رائحتها، حتى رقت عيناه بالدمع، لم يكن وحده من دمعت عيناه بل كانت راحيل مثله جالسة على فراشها، تضع أمامها أعداد جريدة القارئ منذ اليوم الذي بدأت فيه النشر حتى الليلة السابقة لليلتها هذه، لا تملك أن تشكو لأحدٍ حزنها سوى حياة، لكنها في ذلك الوقت كانت بعيدة عنها، سافرت منذ يومين إلى أسوان لتكن في استقبال مهدي... دقت سعاد باب غرفة راحيل... سمحت لها راحيل الدخول... قالت وهي ممسكة بمقبض الباب:

- حياة على التليفون بتسأل عليكي.

- مين؟

- حياة.

أسرعت نحو التليفون متعجبة، كأنها في جنة الخلد ووجدت ما تمنت، أمسكت السماعة، وقالت في صوتٍ يغلب عليه رنة البكاء:

- حياة وحشتيني.

- مالك يا راحيل؟!

قالت وهي تضغط بأسنانها على شفتيها هامسة:

- واطردت من الشغل.

- إزاي؟ وليه؟ وامتى؟

- استني هحكيلك على كل حاجة.

كانت تجلس بجوارها سعاد غير متعجبة مما سمعت، فهي على علم بما حدث اليوم بعد أن قصته عليها راحيل، نظرت إليها راحيل، وقالت وهي تضع يدها على أسفل السماعة:

- نجلاء فين؟

- اطمني نامت.

وأكملت حديثها بعد أن جلست على المقعد المجاور لها:

- الصبح أول لما وصلت الشغل وقبل ما أقعد على المكتب ندهلي أستاذ كامل... رحت مكتبه وهناك قالي مينفعش تكملي معايا الشغل وإنتي نشرتي كتابك في دار تانية... وجداني كتير، لحد لما قالي سلمي المفاتيح وخدي ورقك وأمشي، وطبعاً كل اللي في الجرنان... سمعوا.

تساءلت مستفسرة:

- وبعدين؟

- سيبته خلاص.

- بالسهولة دي؟!

مش فارقة، ثم غيرت مسار الحديث، قائلة:

- آه صحيح، أنا جيالك قريب.

- إزاي؟ هي نجلاء هتسيبك تسافري لوحدك، وتقعدي في فندق.

- لأ، ما أنا جاية أزور عمي فارس.

- أمم.

كفكفت راحيل دموعها، وتساءلت بلهفة:

- شوفتي مهدي؟

- لأ، لسه الحد.

في يوم السبت السابع عشر من أكتوبر كان صالح في غرفته بالجريدة، وقد صح الآن نعتها بغرفته وحده بعد أن تركتها راحيل، ولم يشعر بذلك يومها لأنه أسرع بالخلف من راحيل ولم يعد للجريدة مرة أخرى ذلك اليوم، يتحرك فيها ذهابًا وإيابًا عابس الوجه، ضائق الصدر، يرغب في أن يصرخ، قائلًا:

- هناك شيءٍ ناقص؟

تنقصه الروح، البسمة، كل ما حوله مغرق في السكون، يطن في رأسه صوتها، وتبصر عيناه بسمتها، جلس بالوراء من مكتبه مباشراً لعمله لكنه لم يستطع، فالذكريات القليلة معها تمر أمامه في سرعة البرق، تعجب من حاله، فلقد سلبت منه عقله ولم تكتفِ بذلك بل جعلت قلبه أسيراً لديها، فلا يبالي هو بالأسر ربما يغيره من القسوة للرقة، ومن الحيرة للهدايا، فقلبه لها ولتفعل به ماتشاء، ولا شيء هناك يذكره بها سوى عقله، ولكنّ شيئًا ما يبقى هناك على مكتبها، يستقر ذلك التمثال ذو القبعة الطويلة البنية اللون، والرداء الأبيض بتنورته الواسعة، عند الضغط على زر التمثال المستقر في القاعدة يبدأ في الدوران ويتصاعد منه صوت الأنين، أنين الإنسان المتصارع في الحياة كما كانت تصفه راحيل، قائلة:

- إنه يبدأ بالدوران عندما تتمكن منه أصوات السماء.

نهض من مقعده وتحرك نحوه، جذبه نحوه برفق، وهو يتساءل:

- إزاي تسيبه هنا؟!

- مسمار جحا.

- إزاي يعني يا راحيل؟

- بصي يا سعاد يا بنتي!

قالت سعاد ضاحكة:

- بصيت يا ماما.

- أنا بعد ما زعلت وعيط، اكتشفت إن كل اللي عملته مالوش لازمة، لإني في يوم من الأيام حارجع تاني الجرنان.

تساءلت سعاد:

- والثقة دي جبتيها منين؟

جلست راحيل بجانب سعاد على فراشها قبل أن تخلد إلى النوم، وقالت:

- من الدنيا كله بيعدي، ومفيش حاجة أتعلق بيها إنسان إلا واخدها... بس بعد لما يزهد فيها.

تساءلت سعاد:

- طب وأسوان؟! من زمان وأنتِ نفسك تروحي، ودلوقتي حتسافري، معنى ده إنك زهدتي فيها؟

أجابتها باسمة:

- مش شرط، ممكن يكون لحكمة ما، عشان كده حسافر.

- إزاي مسافرة؟

قالتها نجلاء منفعلة وهي تدفع الباب بعدما أنصتت لآخر قول لراحيل دون عمد.

أجابت راحيل بعد أن انتفضت من على فراشها، وهي تحاول أن تحد من ثورتها:

- مش فجأة ولا حاجة... بس عمي عايزني أزوره.

ثم قالت متوسلة بطريقةٍ طفولية:

- أرجوكي سبيني أروح، بجد نفسي أسافر هناك، آخر مرة زرتها من تسع سنين مع بابا وماما... أرجوكي

سألتها نجلاء بهدوء:

- هتروحي امتى؟ وهترجعي امتى؟

قالت بصوتٍ يغلب عليه رنة السعادة:

- من الحد للحد.

- كل ده يا راحيل؟

- ما هو فيه يوم كامل للسفر.

- طب استني الشهر الجاي.

أجابت راحيل مسرعة:

- لأ، ما هو عشان أحضر تعامد الشمس.

- تعامد الشمس الخميس، ليه تستني ليوم الحد؟

قالت ببساطة:

- ما هو أنا مش هروح كل يوم، ياريت توافقي.

- طب بس بشرط.

- براحتك، قولي اللي تقوليه.

- أول لما توصلي خلي فارس يكلمني.

هزت راحيل رأسها، وقالت:

- تمام.

- وكل يوم تتصلي بينا.

- حاضر، حاجة تانية؟ وكمان دول شرطين مش واحد... خليها عليا المرة دي.

قالت بغضب مصطنع:

- لأ خلاص، نامي عشان تصحي بدري، وقصي لسانك شوية.

- حاضر، بس أصحى بدري ليه؟

ببساطة قالت نجلاء:

- عشان الشغل، مش معنى إنك كنتي أجازة النهارده وإنك مسافرة بكرة، تنسي الشغل.

قالت راحيل وهي تخبط بيدها على جبهتها:

- نسيت أقولك، مبقاش في شغل.

نجلاء مستنكرة:

- نعم!

- استني أفهمك.

- تفهميني إيه، إنتي سبتي الشغل ليه؟!

انتفضت راحيل من مجلسها وأسرعت حتى استقرت أمام باب غرفتها، تتأهب للفرار:

- لا أنتِ فهمتيني غلط، أنا مسبتش الشغل.

- أمال؟

- اطردت.

لم يكن أمامها سوى هذه الطريقة كي تخبر نجلاء بما حدث، انفعلت حقًا لكن بعد قليل سوف تتساءل عما حدث، وتستقبل

قول راحيل أيًّا كان بصدرٍ رحب، كانت تحبها للدرجة التي صعُب معها أن تغضب من أفعال راحيل الطائشة، لكنها كانت تثق براحيل أكثر من ثقتها هي بنفسها، هي سيدة صبورة، مؤمنة، تحملت وحدها تربية ابنتها وحيدة بعد موت زوجها تاركًا إياها شابة صغيرة ومعها طفلة لم تتجاوز الثانية من عمرها، كان دخله من ممتلكاته كفيلًا بأن يوفر لهما رغد العيش، استقرت في شقة بجانب شقيقتها لتصبح راحيل شقيقة سعاد، وبعدما ماتت أختها حملت على عاتقها كفالة راحيل وأصبحت لها الأم والأب.

(٤)

في مساء يوم الأحد، ودعت راحيل نجلاء وسعاد واتجهت إلى محطة مصر كي تركب القطار المتجه إلى أسوان ومعها مجموعة من رسائل القرّاء، هدفت بها قطع تلك المسافة الطويلة بلا ضَجَر، اتخذت مقعدها في القطار وبدأت في قراءة إحدى الرسائل، جاء فيها:

"في الكون أسرارٌ هائمة هناك من يحلق إليها وآخر تنحدر إليه، والبعض حياته هي السر الأكبر، سر الحياة والموت، أرسل إليكِ يا ابنتي قصتي، قصة سطرها القدر وكنتُ أنا بطلها، غريبة حقًا هذه الحياة، أمس قرأت مقالًا لكِ كنتِ تتحدثين عن أهل الله وجاء وَصفهم فيه، بأنهم..

من نظروا إلى الدنيا بعينٍ زاهدة وإلى الآخرة بعينٍ راضية، هؤلاء الذين رأوا في الدنيا دارًا فانية ولم يروا في الآخرة سوى جنة"، أخذت أتساءل في قرارة نفسي:

- من أين لكِ بتلك الكلمات؟ فلقد سمعتها منذ ثلاثين عامًا حينما أبصرت ما لم يبصره أحد، أو ربما رأى البعض ما رأيت ولم يفصحوا بذلك، فحفظوا السر وذابوا فيه.

أمسكت راحيل بالظرف وقرأت التاريخ المكتوب عليه، وكان التاريخ المكتوب يرجع إلى شهرٍ مضى، حدثت نفسها:

- انشغلت بالكتاب للدرجة ونسيت أقرأ الرسايل، لو كنت قريتها كنت ممكن أستفاد منها في كتابي.

أكملت القراءة:

"دائمًا ما كانت الحياة ترفض بُعدي عنها منذ اللحظة الأولى التي خلقني الله فيها، فكم من مرة برهنت على حبها وتعلقها بي، لكن من المتمسك أكثر بالآخر أنا أم هي؟! الإجابة هي تمسك القدر الذي يأبى أن أفارق الحياة قبل أن أقرأ آخر سطر في كتاب قدري".

مات أبي وأنا لا أزال مُضغةً في رحم أمي، وأمام فقرها وصغر سنها الذي لم يتجاوز سبعة عشر عامًا قررت أن تتخلى عني، لكن وسائلها لم تجدِ وتمسكت بي الحياة بقوةٍ، طافت بي أمي في أنحاء البلاد باحثة عن الرزق لكن دون جدوى، وخرجت أنا إلى الدنيا بصرختها في أرضٍ فضاء في القرية الجديدة التي ارتحلت إليها، تجمع حولها أهل تلك القرية وأكرموها خير إكرام، وكأن قدرها ساقها إلى هناك حتى تجد الراحة بعد الألم، بعد ما يقرب من خمسة أعوام أكرمنا في خلالها أهل تلك القرية، أطلقوا عليَّ اسم "المبروك"، ولم أكن أدري معنى ذلك الاسم وأنا طفل لم أتجاوز الخامسة من عمري، لكن تلك الحفاوة والتكريم كانت توقع في نفسي السعادة والتفاخر، بمجرد أن تطرق يدي الصغيرة باب بيت كانت تحل عليه رحمة الله وينعم أهل ذلك البيت بالخير، لم تقتصر تلك البركة على يقظتي بل صاحبتني أيضًا في منامي، رأيت

في إحدى المرات أنني اصعد مع كثير من الناس معراج وعلى حافتيه آيات منقوشة، وصلواتٍ على النبي الكريم، متبعين رجل لم أرَ منه سوى الجلباب الأبيض الذي يرتديه، كان ينشد مديحًا في وصف النبي، وأنا من ورائه أردد ، قائلًا:

- هذه الدنيا تزول والبقاء ليس يطولُ، أين من يمشي يقولُ كن شفيعي يا محمد.

وحينما أخبرت أمي بتلك الرؤية تبسمت، وقالت لي:

- هل كنت تعلم من هو الرجل ذو الجلباب الأبيض وأنت في المنام؟

- نعم يا أمي، كنت أعلم أنه.....

ولم أكمل حديثي فلقد منعتني عن الإجابة، وقالت محذرة:

- لا تخبر أحدًا بما رأيت.

بلغتُ الخامسة عشرة من عمري وبلغت شهرتي ذروتها، حتى وصلت أنباء ذلك الصبي المعجزة القرى المجاورة، قصدني الكثير وأصبحت أقرأ القرآن في جميع المناسبات التي تحل بالقرية، بعد سنوات وقع في قلبي الطمع وقررت أن أرتحل، كانت أمي تبكي وتتوسلني بأن لا أرحل، وقالت لي:

- لا ترحل، لا تطمع في أكثر مما منحك الله إياه.

- أنا لست بطامعٍ، فهناك الكثير ممن يدعون العلم بالقاهرة ويهرول إليهم الكثير من الغاوين، أما أنا فلدي الكثير والكثير من أسرار الوجود التي لا يعلمها إلا القلائل.

- إن الله لم يرفع عنك حاجبًا من نوره إلا لاختبارك، لا ترحل وأكمل حياتك هنا.

- لا تقلقي، عام واحد كافي كي يجعلني من المشاهير الأغنياء.

- الغنى غنى الدين، احفظ ذلك السر الذي وضعه الله في قلبك ولا تبوح به... فمن يبوح بالسر تباح دماؤه.

- لا تغريني بكلماتك العذبة هذه، فكيف لدمي أن يباح؟

- ستعلم حينها، تذكر حديثي هذا يا ولدي، وعندما يباح دمك لن تجد من يُنجيك سوى التضرع والخضوع والتذلل على باب الرحمن، تشتاق لنظرةٍ واحدة منه تشفي الجرح وتعفو عنك.

- لكنني تركتها وارتحلت عن القرية، وفي ربيع العمر أصبحت حياتي مثل الكمان، كلما تقدم قوسه على أوتاره سمعت أجمل الألحان وهكذا كانت سنواتي، أحببت وكرهت، سافرت وتزوجت، وجنيت من المال الكثير، ورزقني الله بالبنون ليضيفوا للحياةِ زينة أخرى غير اللهو واللعب، وكلما تقدم بي العمر تمسكتُ بالحياة وتمسكت هي الأخرى بي، لكن تحول عزف الكمان إلى ناي يعزف أحزن الألحان، لتكن تلك الألحان خلفية أيام حياتي الأخيرة في عالم اللهو قبل صحوة القلب والعقل.

في لحظة من اللحظات يأتِي ترتيب القدر؛ ليصبح أي ترتيب بشريملغى، ولأبسط الأسباب، وبسبب شعلة واحدة من النار ذهبت زينة الحياة، حرق المال، ومات البنون، وتحول ربيع العمر إلى خريف، وذهبت تلك النعمة التي كفرت بها، ولم أستطع السباحة في نهر الحياة، أصبحت بين خيارين كل منهما أقسى من الآخر إما التكيف مع الحياة وإما اختيار الموت، ولأن الروح تخشى الموت والجسد يرفض البقاء، وقف عقلي في مفترق الطرق وذهب في اتجاه ثالث هو الحياة والموت معًا دون أن أواجه ما أخشاه في الحياة وما يفزعني من الموت، جلست لسنواتٍ على باب الله أنتظر إحسان المارة، منحت الأمل للكثير لكن لم أستطع أن أمد روحي به، اكتفيت بنظرة السعادة في وجوه من أمنحهم الأمل في الحياة، ومازالت كلمات أمي تتردد على مسامعي، أراها في نومي ويقظتي باكية على مصيري هذا، وتقول:

- لذ بحمانا يا فارس، فلقد دلفت من باب الرحمة دون أن تطرقه، لكن الشيطان أغرك كما أغر أبويك، وحينما أرادك الله طردك من نعيم الدنيا وأذاقك مرها، كي تفر إليه بقلبك وعقلك، تجلس ذليلًا على باب عزه عسى أن يرفع المولى عنك حجابًا من نوره، ويصبح التخلي بداية التجلي.

اشتقتُ لأمي فعدتُ إليها سائلًا الله أن أجدها على قيد الحياة بعد كل تلك السنوات، وتوجهت إلى قريتنا الجديدة، وعندما

تأكد لي وجودها اختفيت عن الجميع في بيداءٍ خاليةٍ لا يُسمع فيها دبيب، أصبحت في كل ليلةٍ ارتدي البردة الحمراء، فكانت هي الشيء الوحيد الذي تركه أبي، وذلك بعد أن يتوضأ جسدي ومن قبله قلبي، أنطلق في الصحراء على غير هُدى، أسبح بحمد ربي وأستغفره، حتى تشكو قدمي من ألم المسير واستقر حيث شاء الله وأبدأ في صلاتي معلنًا التوبةٍ، في إحدى تلك الليالي غفلت عيني ولم يغفل قلبي، فرأيت بعين القلب رجل وجهه كالقمر في ليلةٍ التمام يطلب مني المسير معه في الصحراء، لبيت النداء وأخذت أتبعه في السير لا أتحدث ولا هو يتحدث، بل يكتفي بتلك البسمةٍ الصافيةٍ، كسرت أنا الصمت، وسألته:

- من أنت أيها الرجل الكريم؟

تبسم الشيخ في عذوبةٍ، وقال:

- عبد من عباد الله.

- نحن أجمعين عبيد لله نعبده ولا نعبد سواه.

قال الشيخ:

- لكن هناك من يعبده طمعًا في جنانه ونحن نعبده حُبًّا في صفاته.

صمت لحظةٍ، ثم قلت هامسًا:

- من أنتم يا شيخ؟!

- نحن من نظروا إلى الدنيا بعينٍ زاهدة، وإلى الآخرة بعينٍ راضية، هؤلاء الذين رأوا في الدنيا دارًا فانية ولم يروا في الآخرة سوى جنةٍ.

- كيف لي أن أصبح مثلك يا شيخ؟

تركني وأخذ في الابتعاد ثم التفت، وقال صائحًا:

- بقلبك يا جيوشي.

- كيف ذلك يا شيخ بعد أن شاب قلبي؟

صاح لي مرة أخرى، وهو يقول:

- قلب المؤمن لا يشيب... قلب المؤمن لا يشيب.

فتحت عين الوجه فسقطت أدمعي، ومنذ ذلك اليوم واسمي هو الجيوشي بدلًا من فارس، توجهت لأمي بعد عامين من الابتعاد والاعتكاف طالبًا هدى الله، وهناك وجدت الكثيرين من أصحاب الحاجات جالسين أمام بيتها كأنهم دليل على قبول توبتي، بعد مدة قصيرة ذاع صيتي أنحاء البلاد وقصدني الكثير الباحثون عن الهدى، حتى أصبح بيتي ملاذ الذاكرين والذاكرات، وغابت أمي عن الحياة لكن لم تغب عني، فكنت دائمًا أراها في منامي تطوف في الطرقات وتنبع منها رائحة عطرٍ ذكية، فشرعت في تنفيذ ما كنت أرى في منامي، وبدأت السير في الطرقات ليلًا أغمرها بتلك الرائحة، وعندما كنت أتلفت حولي في أثناء السير أجد أنني ضللت الطريق وأسير في طرقاتٍ أخرى ليست بعالمي، ومر العمر أكثر وأكثر وأصبحت

على حافةِ الموت وأنا في العقد العاشر من عمري، أمس كانت أمي تريد أن تتخلص مني، لكن حتى الآن لم يأذن الله، ليزداد شعوري بأنني غريب في تلك الحياة وأنني أقرأ الصفحةَ الأخيرة في كتاب قدري.

هذه هي الحياة نتحرك فيها كيفما شئنا، ونسعد لذلك الاختيار لكن الحياة هي من تسوقنا إلى حيثما أرادت وأنتِ واحدة من هؤلاء ولا علم لكِ بما سوف يحدث، لكن كوني على ثقةٍ بأننا نفر من قدر الله لقدر الله.

(٥)

في صَبيحةِ تلك الليلةِ كان مهدي يقف أمام المرآة يصفف شعر رأسه ويهندم ثيابه، ثم تحسس ياقته والتقط جاكيت بدلته ودلف إلى الخارج، ولم تكن حياة بأقل منه، طالت وقفتها أمام المرآة تدور حول نفسها في خيلاء، تبتسم ثم تعبس، حتى عدلت من حجابها وأسرعت في خفةٍ وطيش للخارج.

هبطت الدرج بهدوء عكس طبيعتها المنطلقةِ دائمًا، لتكن في استقبال مهدي لليوم الثاني، بعد أن مضى اليوم الأول بسلام وتحقق به ما تمنته.

هبط مهدي درجات السلم في شموخٍ ووقار في حين أن حياة تنتظر بالأسفل تطيل النظر إليه، حاولت مرارًا أن تخفي نظراتها لكن لم تستطع أن تمنع عينيها من استراق النظر إليه، وقفت أمامه لا يشغلها شيء سوى تتبع حركاته وصوته وهيئته، كي تبرهن لقلبها بأنها لم تكن تتوهم حبه، ومن العجيب أن ذلك كان شعور مهدي، وكأن أرواحهما تلاقت من قبل على رغم بُعد المسافات، وعندما وجد كل منهما الروح التي ألِفَهَا في عالم الغيب أبَى الفراق وتمسك بالآخر، كانت عينه تخبرها بذلك الشعور الذي سَرَى في جسده حينما أبصرها

أمس، وهي مثله تقف أمامه تقر في نفسها بالذي قد كان منها من حب.

لم تمر لحظات على تلك الحالة من السكون حتى أخذ مهدي نفسًا عميقًا، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- بالعجل يا حياة.

- وليه الاستعجال ده؟ ثم نظرت في ساعة يدها، وأكملت: لسه بدري الساعة لسه تسعة.

- الوقت بيمر بسرعة.

- طب، اتفضل.

تحرك مهدي مع حياة بهيبةٍ ووقار ومن خلفهما حارسه الخاص الذي اكتفى به عن بقية الحراس، قطع معها بهو الفندق حتى وصلا إلى بوابته، وهناك ارتدى نظارته السوداء كي تحميه من حرقة الشمس، أدارت حياة نظرها نحوه، وقالت بصوتٍ تزينه الابتسامة:

- الشال اللي حولين رقابتك.

- أشنو بيه؟

- أظن أنه مش حا يناسب رحلة طويلة زي دي .

- أخلعه؟

- ياريت.

انطلقا معًا في زيارة إلى معبد أبو سمبل القريب من الفندق، حتى يكتشفه مهدي قبيل تعامد الشمس بأيام، وفي القرية

المسماة باسمه في ساحة بيتٍ كبير مكون من طابقين ملون باللون الزهري، يجلس في وسطه أربعة رجال يرتدون الزي الأزهري المتعارف عليه منذ سنوات، متخذين مقاعدهم خلف المنضدة المتراص عليها أكواب الشاي، وبين أيديهم يجلس بعض من رجال قرية أبو سمبل، وبالخلف منهم يتراص الأطفال على المقاعد الخشبية، وفي ساحة المنزل الداخلية تجلس السيدات ملثمين الوجه، مستمعين لقول هؤلاء المشايخ، كان من بين الجالسين طبيب أمراض المخ والأعصاب بمستشفى المدينة التي يبعد عن القرية مسافة ساعة بالسيارة، وناظر المدرسة الثانوي ومعه بعض المعلمين الأوائل وغيرهم الكثير، وهناك من أتى لحاجة في نفسه انتظر قضاءها، فجلس بعيداً عن الجموع، وعقد يده حول صدره، واعتدل في جلسته يستمع لقول المشايخ وأهالي القرية.

على بعد أمتار من معبد أبو سمبل الكبير يتحرك مهدي مع حياة صوبه، توقفت حياة عند واجهته، وقالت:

- هو ده المعبد.

- أبو سمبل؟

- بيقولوا.

- منو؟

- مش مهم، قبل أي حاجة... بص كده قدامك.

سرح ببصره إلى الأمام بعد أن ولى المعبد ظهره، وقالت:

- الشمس بتيجي من هناك، ثم استدارت نحو المعبد بخفة، وأكملت:

عمودية لحد قدس الأقداس.

متسائلًا:

- شنو قدس الأقداس؟

- مستعجل ليه؟ دلوقتي تعرف.

وقبل أن يدلف معها إلى الداخل، توقفت حياة قبيل الباب بأمتار، وقالت وهي تشير عن يمينها:

- دول تمثالين، أول واحد من هناك اسمه محبوب أتون، والتاني اللي قدامك محبوب أمون، أما على يساري التمثال المكسور ده تمثال حاكم الأرضيين، وعلى يمينه تمثال شمس الحكام.

وظل هو مصغيًا لقولها باهتمام حتى رفعت رأسها إلى أطراف الواجهة، وقالت وهي تشير بيدها:

- بص.

- والشمس؟

- زي ما أنا ببص، حط إيدك على جبهتك كأنها شمسية وشوف.

شرع في تنفيذ قولها، وهو يقول:

- كنت بحتاج شفقة.

متعجبة:

- يعني؟

- كاسكيتا.

- آه.

ثم قال:

- رأيت.

أكملت:

- في أول جزء حا تلاقي اتنين وعشرين قرد بيمثلوا الأربعة وعشرين ساعة اللي في اليوم.

- لكن أكو اثنين مو موجودين.

- آه، ما هي واحدة محذوفة للشروق والثانية للغروب، ركز معايا.

- ومن وين أعرف؟

- آسفة، رفعت التكليف بنا.

- أبدًا، كل لما نرفع التكليف تكون الرحلة أمتع.

- سؤال؟

- اسألي.

- بتتكلم مصري إزاي؟ يعني كلمة مصري وكلمة لأ؟

أجاب ببساطة وهو في طريقه إلى داخل المعبد:

- أمي مصرية.

- من فين من مصر؟

سرح ببصره، وهو يقول:

- شبرا.

أجابت وعلى شفتيها ابتسامة ذهول:

- أنا برضو من هناك.

قاطع قولها، وقال:

- كملي حديثك؟

أكملت بجفاء:

- دي الصالة الأولى اسمها صالة الأعمدة، بص على يمينك أربع تماثيل واقفين في الوضع الأوزيري.

- وضحي!

- زي ما حضرتك شايف، ضامم رجله وحاطط إيده الاثنين على صدره، ونفس الكلام الناحية اللي جنبي، ومن فوق لو تفضلت و بصيت كده.

ولم تقوَ على منع نفسها من مداعبته، وأردفت:

- ومتقلقش من الشمس.

تبسم لها بسمة حانية أزال بها الجمود الذي أصابها، ثم أكملت:

- اللي مرسوم فوق ده طيور فردة جناحتها بتحمي الموكب اللي بيخرج من جوا، لأن المكان اللي احنا واقفين فيه ده اسمه الطريق المواكبي، ثم تساءلت :

- هو حضرتك لازم تعرف كل حاجة؟

- لأ، بس بدي أعرف المهم.

أكملت:

- الصالة دي هي الصالة اللي كان بيتم فيها طقس التبخير...

قاطع قولها شرود مهدي الذي نظر إلى الأمام، وأشار نحو التماثيل الأربعة الموجودة بعيداً، وتساءل عجبًا:

- شنو هذا؟

- حا نروح لها، دي الصالة الأخيرة والمهمة... قدس الأقداس.

توجه نحوها، وقال برنة سعادة:

- حلو هواي هواي.

- وهو ده اللي مقصود من رحلتك هنا، المكان ده مكنش ينفع حد يدخله غير الملك وكبير كهنة المعبد.

قال مازحًا:

- واللي يجي هنا غيرهم تصيبه لعنة.

- يعني؟

- حتصيبني لعنة؟

تبسمت من خفته ومرحه، وتساءلت:

- هو في دلوقتي ملك أو كبير كهنة؟

- لتخافين ما اخترعت.

رفعت حاجبيها عجبًا، وتساءلت:

- يعني؟

- اتفزعت.

- أمم، وأكملت حديثها:

- التمثال اللي قدامك ده تمثال الإله "رع حور آختي" اللي خصص له المعبد، وليه تمثال مصغر في منتصف وجهة المعبد فوق الباب بالظبط... وده تمثال رمسيس الثاني اللي بتتعامد عليه الشمس، مش بتتعامد عليه لوحده لكنه هو أهم شيء، والتمثال اللي قدامي ده "أمون رع" وعلى شمالي الإله بتاح.

والتفتت للوراء، وقالت:

- الشمس بتقطع كل المسافة دي من الجبل لهنا حوالي ستين خمسة وستين متر وبتقعد حوالي تلت ساعة على وجهه، زي ما هتشوف يوم الخميس بإذن الله.

بداخل القرية فرغ المشايخ من جلستهم، فأسرع فارس نحو أحدهم وناداهُ، قائلًا:

- يا شيخ.

التفت إليه الشيخ... ألقى فارس السلام:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بَدأ يعرف نفسه:

- أنا الدكتور فارس دكتور القلب والأمراض الباطنة بمستشفى أسوان العام.

- أهلًا بيك يا دكتور.

- بيك أنت يا شيخ، كنت عايز اسألك عن حاجة، ممكن أقابلك؟

قال مرحبًا:

- أكيد ممكن، امتى تحب؟

- في أي وقت حتى لو دلوقتي.

- يبقى نصلي الظهر جماعة، ونشوف نروح فين.

وما أن انتهى فارس من صلاته مع الشيخ، أسرع به إلى بيته، قطع فارس مع الشيخ الطريق الرملي وصولًا إلى بيته بجانب البيوت القصيرة، المتراصة،المزخرفة التي تتخللها الأشعة الذهبية من كل جانب، والنخيل الشاخص أمامها كأنه حارس يقيها المعتدين، صعد الشيخ درجتي السلم وصولًا إلى الساحة الصغيرة للبيت السابقة لبابه الخشبي، الأزرق اللون، جلس على المصطبة الخشبية وهو يتأمل تلك النقوش المحيطة به على الجدران، من صور لتماسيح ورسوم شعبية متعارف عليها بين أهل النوبة، حتى أذِنَ له فارس بالدخول بعد أن استأذن هناء، بعد دقائق من التعارف وتقديم واجب الضيافة، بدأ فارس يقص له ما رأى وسمع منذ اليوم الأول له بالقرية، وبعد أن استمع الشيخ لقوله، سأله متعجبًا:

- مين الشيخ ده؟

- معرفش اسمه ولا حاجة عنه أكتر من اللي حكيته... كل الناس اللي في القرية طلعوا يعرفوه إلا أنا، حسيت إني واحد من أصحاب الكهف.

سكت الشيخ لحظات مفكرًا، ثم عاد يقول في اضطراب:

- وإيه اللي خلاك تسألني؟ أنت عايز تعرف إيه؟ وتوصل لإيه؟

- أوصل للسر.

صمت لحظة مفكرًا، ثم قال:

- سر إيه؟

- الراحة اللي بحس بيها لما أشوف الشيخ واسمع صوته.

تذكر حينها الشيخ قول راحيل، فقال:

- بس ده سر، ولو عرفته مش هتحس بجماله، في حاجات جمالها في غموضها.

- يعني؟

- يعني متحاولش تعرف حاجة واكتفي بالراحة اللي بتشعر بيها وأنت في مستقر الجيوشي، وكمان...

سكت الشيخ فجأة واقترب من باب الغرفة الجالس بها مع فارس يستمع لصوت الفتاة الذي ارتفع بالضحك والتهليل، فحدث نفسه بصوتٍ مسموع:

- راحيل؟

تساءل فارس:

- نعم يا شيخ؟

قال وهو يشير بيده نحو الخارج:

- صوت أستاذة راحيل.

تساءل فارس:

- أنت تعرفها؟

- يعني هي راحيل؟

- أيوه، راحيل بنت أخويا صادق.

وتساءل من جديد:

- أنت تعرفها؟

تلعثمت الكلمات في فمه، وهو يقول:

- زميلتي في الجريدة، ممكن أشوفها؟

- آه فهمت، بعد إذنك.

ذهب فارس إلى فناء البيت والتقاها متبسمًا مداعبًا إياها كما تعود، وفي أثناء انشغالهما بالضحك والحديث أبصرت راحيل من وراء عمها صالح واقفًا بزيه الأزهري، تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها بهذا الزي، فلم تبصره من قبل يرتديه حتى بعين الوهم، تجاهلت ما رأت بعد أن شككت في بصرها وظنت أن أحلامها انتقلت إلى الواقع، التفت فارس نحو صالح، وقال:

- هي دي راحيل اللي أنت تعرفها يا شيخ؟

- أيوه هي، بس شكلها مش عرفاني.

استأذن فارس وتركهما واقفيَن في ساحة البيت.

- إزاي أنتِ هنا؟

أجابت راحيل بابتسامة عريضة:

- مفروض أنا اللي أسأل.

- ليه؟

- لأنك في بيت عمي.

- أمم... وده يضايقك في حاجة.

اصطنعت البسمة، وهي تقول:

- لأ أبدًا، مادام صاحب البيت هو اللي دعاك عشان تيجي هنا، فمش من حقي إني أعترض.

متسائلًا:

- وعرفتي منين إنه هو اللي دعاني؟

- أمال جيت البيت لوحدك؟

مبتسمًا:

- أكيد لأ.

- ما أنا بقول برضو.

- إنتي لسه واصلة؟

- شايف إيه؟ واقفة في مدخل البيت وشنطتي جنبي، أكيد لسه واصلة.

- ولسه عايزة ترتاحي؟

- آه.

- يبقى أسيبك دلوقتي هنا، وبلغي الدكتور فارس إني مشيت، وأبقى أشوفه بليل.

تساءلت متعجبة بعد أن تولّى عنها:

- هو أنت جي بليل؟

التفت إليها مسرعًا، وقال:

- آه... اتفقت مع فارس إننا نتقابل بالليل.

وأكمل سيره حتى استوقفته كلماتها:

- عشان الجيوشي، صح؟

التفت مرة أخرى، وقال:

- حكالك القصة؟

- أكيد.

- وصدقتي؟

- شكيت.

- وحا تتأكدي إزاي؟

- حازوره.

- امتى؟

- بكرة.

- وليه مش النهارده؟

تبسمت وهي تقول هامسة:

- لأنك رايح النهارده، فأكيد فارس مش هيوافق؟

قال في غرور:

- ممكن يوافق؟

تساءلت:

- إزاي؟

- ارتاحي وبليل هتعرفي.

- نتراهن إنك مش حتعرف؟

استكملَ طريقه دون أن يلتفت إليها، وقال صائحًا:

- من غير رهان.

تركها صالح وتوجه إلى حَيْثمَا شَاءَ، في حين ظلت هي بالقرب من الباب تتساءل عن أي صدفةٍ أتت إليها بصالح بعد لحظات من التفكير فيه، أكانت حقًّا مُصَادَفةً؟ من الممكن، لكن لكل صدفةٍ ترتيب يعلمه اللّه واطلع عليه بعض عباده، فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي تفكر فيها راحيل في شيءٍ ثم تجده يتحقق أمامها، شغلها ذلك الأمر للحظات انتهت ببدايةٍ حديثها مع عمها وزوجته، قالت راحيل:

- إن شاء اللّه الولد أو البنت عينهم تبقى شبه عينك يا هناء.

تساءل فارس:

- ومالها العيون السودا يا راحيل؟

قالت مداعبةً:

- سودا، حمرا المهم إنه يجي بالسلامةِ.

ردد ثلاثتهم:

- بإذن اللّه.

- أسيبكم أنا بقى عشان هموت وأنام.

تساءلت هناء:

- الساعة لسه مجتش تسعة، وكمان أنتِ متعشتيش.

أجابت:

- آكل إيه؟ بقالي فترة ماليش نفس...

ثم حركت إصبعها السبابة على رأسها بحركة دائرية لتخفف ألمًا قد حل بها، وأردفت:

- وكمان الصداع صعب أوي، أكتر من تلتاشر ساعة في الطريق من شبرا لهنا، مستحيل أستحمل.

قال فارس:

- ما هو أنتِ اللي بتعذبي نفسك، طالما معاكي فلوس تذكرة طيارة، بتيجي بالقطر ليه؟

- الخوف...الخوف، مش قادرة أتخلص من خوف ركوب الطيارة، ثم إن السفر بقى أسهل بعد ما مدوا خط السكة من القاهرة لأسوان.

قال ضاحكًا:

- جبانة!

ودعتهما وخلدت إلى النوم، استغرقت في نومٍ عميق دون أن تتعمده، كأن عقلها تحدى صالح دون أن تدري ورفض رؤيته، وفي العاشرة التقى صالح مع فارس، وتوجه معه إلى حَيْثمَا استقر الجيوشي، ظل صالح سَارحًا طيلة طريقه، يدير رأسه

بين الحين والآخر لفارس لتتساءل أعينه عنها، حتى أقر أمام نفسه بأنها انتصرت عليه، تناساها لمدة من الوقت التقى خلالها مع الجيوشي ولا يدري أحد ما دار بينهما من حديث دفع صالح للقائه مرة أخرى باليوم التالي، الذي جاء صبيحته وحياة وراحيل تجلسان في صالة طعام فندق اتخذته حياة مقرًا لإقامتها طيلة مدة وجودها بأسوان، وكانت راحيل تعرفه جيدًا، فقد سبق لها الإقامة به مع والديها من قبل، قالت حياة بلهفة:

- راحيل، بصي.

تساءلت مندهشة:

- في إيه يا حياة.

- بصي هناك.

- فين هناك؟

- عند الترابيزة اللي جنب الباب.

أعادت راحيل تقليب فنجان الشاي بهدوء، وهي تقول ببرود:

- قصدك عمار الهاشم.

كان عمار الهاشم يجلس بالقرب من تلك الطاولة ومن حوله المعجبون، منهم من يلتقط صورة وآخر ينتظر إمضاء عدا هي، فلم تتحرك وظلت حياة بجانبها لا تحرك ساكنًا، فهذا عمار الهاشم الكاتب الكبير الذي أتاح للجميع فرصة ملامسة المشاعر، أبكى الكثير وأعطى الأمل للأكثر، أحبه الجميع

وشبهوا كتابات راحيل بكتاباته، كلها تلامس الروح، بعد لحظات من السكون الذي خيم عليهما، تقدم نحوهما عمار، وقال:

- مساء الخير.

أجابت راحيل:

- مساء النور.

أما حياة فقد تبسمت، ثم قالت بلهجتها المرحة:

- أستاذ عمار، صح؟

تبسم، قائلًا:

- أيوه أنا، ممكن أقعد؟

قالت حياة:

- أكيد اتفضل.

ظلت راحيل كما هي لا تحرك ساكنًا وتكتفي بالنظر في ذلك الكتاب الذي تحمله بين يديها، حتى كسر عمار حالة الصمت، وقال لها:

- هو الكتاب ده زي ما بيقولوا عنه؟

تساءلت بلهفة:

- بيقولوا إيه؟

- مش هو ده كتاب الطريق للملكوت للكاتبة راحيل صادق؟

- أيوه هو، عاجبك؟

- أنا لسه مقرتهوش فمقدرش أحكم عليه.

تساءلت حياة:

- وعايز تقرأ الكتاب؟

- أتمنى، بس هو لسه نازل في المكتبات من يومين، ومفتكرش أنه موجود هنا.

- وليه تستنى، طالما...

ولم تكمل حياة قولها، فقاطعتها راحيل، قائلة:

- قصدها تقول طالما أنا معايا نسخة تانية، فليه تأجل قرأته؟

- معاكي؟

- آه.

جذبت حقيبتها وأخرجت منها نسخة من الكتاب، وقالت:

- اتفضل... دي نسخة من الكتاب.

التقط الكتاب من يدها، وقال:

- أتمنى إني أشوف الكاتبة صاحبة الكتاب، لكن ما علينا، إن شاء الله أحاول أشوفها لما أرجع القاهرة.

تساءلت عجبًا، وقالت:

- تقابلها ليه؟

- مجرد إني أعرف مين دي اللي بيقولوا إن كتابتها قريب من كتابتي.

- وده يضايقك في حاجة؟

- أبدًا، أنا مؤمن بالتشابه في الكتابات لأن العلم اللي عندنا واحد، ومصدره واحد، هو ربنا عز وجل، وإن كانت نسبته بتتفاوت.

هزت راحيل رأسها متفهمة، وبعد لحظات استأذنت ومعها حياة وتوجها لخارج الصالة، وفي طريقهما وجه عمار قوله لراحيل، وتساءل:

- أقدر أشوفك وقت العشا.

- إن شاء الله.

تساءلت حياة:

- وليه مقلتلوش إنك راحيل؟

أكملت طريقها وهي تتلفت حولها، وتقول في صوتٍ منخفض:

- لو ركزت مع كل شخص يطلب يقابلني مش هخلص، وحابقى نسخة من عمار وهو قاعد والترابيزة حواليه مليانة، مش قادر حتى ياخد نفسه، عشان كده سابهم وقعد معانا.

تساءلت حياة:

- وحاتشوفيه في العشا؟

علت ضحكتها قليلًا ولم تتجاوز سمع حياة، وتلتها:

- الوهم هو اللي حايشوفه.

صعد عمار إلى غرفته وجلس بها حائرًا منتظرًا موعد العشاء حتى يلتقي معها مرة أخرى، حاول تفسير ذلك الشعور الذي أصابه حينما أبصرها، ومر النهار سريعًا عليه مثلما مر عليها،

وعندما دقت الثامنة في منزل فارس أسرعت راحيل نحوه الجالس على أريكة خشبية زهرية اللون، أمام باب البيت في تلك الساحة الصغيرة، وقالت:

- فارس... فارس.

- إيه يا راحيل؟ فزعتيني.

قالت متوسلة بطريقتها الطفولية المعتادة بعد أن جلست بجانبه:

- آسفة بس تعالي بسرعة، عايزة أشوف الجيوشي.

- مش هقدر أروح النهارده، عندي عملية مهمة بكرة ولازم أصحى بدري.

قالت باستسلام:

- أنا عملت حسابي إني أروح النهارده، مش مهم خلاص أروح يوم تاني.

عاد قائلًا:

- مش عايزك تقابلي الجيوشي.

- ليه؟

استدار عنها، وهو يقول:

- كفاية إني شوفته.... وكفاية عليكي إنك قرأتي رسالته وفهمتي منها قصته.

- بس في كلام كان كتبه كنت عايز أفهمه...

ثم سرحت ببصرها، وهي تقول:

- غريبة قصته، كل لما أقرأها يتنقلي شعور جديد عن اللي قبله.

قال في حزم:

- متشفهوش يا راحيل.

وافقت راحيل واتجهت إلى داخل البيت، وفي طريقها للداخل شق سكون الليل والطرقات صوتًا طالما تعودته..

- السلام عليكم يا دكتور.

- وعليكم السلام يا شيخ صالح، تعالى اقعد جنبي.

ولم تلتفت إليه راحيل بل أكملت طريقها في خطوات وجلة متسارعة، حتى وصلت إلى غرفتها وظلت جالسة بها دون أن تبدل ثيابها ولم تنزع حجابها، يملأها اليقين بأنها ستلاقي الجيوشي في ليلتها هذه.

بعد أن دقت التاسعة أسرع عمار للخروج من غرفته، وفي أثناء ذلك أبصرت عيناه راحيل تغلق باب الغرفة المقابل لغرفته، تبسم لذلك، وتقدم نحوها، وألقى السلام:

- إزيك يا أستاذة.

- أهلًا يا أستاذ عمار.

قال باسمًا:

- سعيد إني شوفتك، تمنيت إني أقابلك في العشا وأهو قابلتك.

- كفاية إنك تتمنى، بالتمني واليقين كل حاجة بتتحقق.

هبط معها الدرج، وبدأ الحديث بقوله:

- إنتي مش من أسوان صح؟

- لأ، مش من هنا.

- وإيه اللي جابك لأسوان.

- أظن أن إجابتي مش هتفيدك في حاجة.

- في ظنك إنتي مش أنا.

وفي طريقهما إلى صالة الطعام التفَّ المعجبون من حوله، وما إن فرغ من الحديث معهم بحث عنها ولم يجدها، كأن الأرض انشقت عنها في لحظةٍ كلمح البصر، جلس على مائدة الطعام وأخذ يتفحص الوجوه لعله يراها أو يرى سواها ،ولم يرها ولم يرَ سواها، فقد أبت عيناه أن ترى غيرها، في حين كانت هي تسير مع صالح، الذي تساءل:

- إيه اللي في إيدك ده؟!

قالت وهي تقلب النظر في يدها:

- تميمة.

- يعني إيه؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة مزيفة:

- أكيد أنت فاهم قصدي، أنا واثقة في عقلك.

- آه، عارف يعني إيه تميمة، بس مش فاهم الغاية منها.

قالت هامسة:

- أصلهم قالولي إنها بتجلب الحظ.

تساءل بنفس نبرتها:

- وإنتي مصدقة في كده؟

- طبعًا لأ.

- أمال؟

قالت مسترسلة:

- بص أنا هشرحلك، هي حاجة متعلقة بالنفسية، يعني لو أنا عندي قناعة إنها بتجلب الحظ، حاتجلبه.

تساءل وهو يرفع حاجبيه عجبًا:

- وضحي أكتر!

- يعني ممكن واحد تعبان بمرض مزمن وبرشامة "ريفو" تشفيه، طالما هو عنده يقين بإن الشفا فيها، أو بمعنى أصح، يكون عنده اليقين في ربنا إنه ممكن يشفيه بحاجة بسيطة زي دي.

- طب ودي، التميمة يعني؟

- نفس الفكرة، يعني بيقولوا عنها تميمة الحظ، بتمنع الأحلام، وبتطرد الطاقة السلبية.

توقف عن السير وردد:

- الأحلام.

- مالها؟

- بتمنعها يعني؟

- أنا قلت على حسب ظنك.

- ولو قولتلك أني عايز أروح المكان اللي جبتي منه التميمة.

- وليه تروح؟

خلعت التميمة من يدها اليمنى، وهي تقول:

- أهي اتفضل.

- وإنتي؟

- حاخد برشامة ريفو.

وأكملا حديثهما بين الجد والهزل وهما في طريقهما إلى حيثما يستقر الجيوشي، يتخلل الصمت حديثهما أحيانًا لكن قلوبهم تتحدث، يتساءل صالح عن سر راحيل وذلك الجمال الذي يستشعره كلما قرأ كلماتها، واستمع لصوتها، واسترق النظر إلى وجهها، فهي مثله تتساءل عن سر ذلك الشعور الذي أصابها في خلال الأيام الماضية عندما بدأ قلبها يخفق ويهفو ببطء كنسيم الصيف كلما أحست بوجوده، لكنها كانت تتجاهل ذلك الشعور، حتى شعرت بأن صالح ليس بأقل منها صبابة.

أكمل صالح الحديث مع راحيل، قائلًا:

- مكنتش أعرف إن هنا في شيخ صوفي معروف غير لما قالي فارس.

تساءلت متعجبة:

- هو أنت تعرفهم كلهم؟

هز رأسه، وقال:

- أسمع عنهم.

-بتسمع إيه؟

قال وهو يتحاشى النظر إليها:

- عن كرامتهم والمريدين، حاجات مكنتش بصدق فيها إلا بعد ما بدأت أقرأ مقالاتك، عرفت إن في حاجات لازم نحس بيها ونجربها عشان نقدر نحكم عليها.

قالت وهي تخبط بكفها على جبهتها:

- غالبًا نسيت أكتب حاجة مهمة في المقالات.

أخذ نفسًا عميقًا وواصل قوله:

- إيه هي؟

- إن اللي بيعرف ربنا ويوصله، بيحتجب عن الحياة واللي فيها، لأنه وصل لليقين.

متسائلًا:

- قصدك الآية الكريمة:

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

- أيوه.

- بس....

قاطعته راحيل، قائلة:

- متكملش، أنا فاهمة تفسير اليقين في الآية بمعنى الموت، لكن أنا بشوف أن اليقين هو وصول القلب والعقل لله في الدنيا.

رفع حاجبيه متعجبًا والتفت إليها، وهو يقول:

- لكن هو الموت، لأن العبادة بتنتهي عند الموت ويبدأ الحساب، ولو معنى الآية اللي إنتي تقصديه، يبقى العبد وقتها يتخلص من العبادة لأنه حايوصف نفسه أنه وصل لليقين من وجهة نظره... والموضوع نسبي.

أكملت وهي تستمر في سيرها المتمهل:

- ممكن بس أنا من وجهة نظري "والله أعلم طبعًا"، إن العبد لما يوصل للحالة دي من اليقين والحب، بتكون العبادة وقتها غاية مش وسيلة يوصل بيها لرحمة ربنا.

- بمعنى؟

- بمعنى إن العبد لما يوصل للحالة دي من الإيمان، بتبقى العبادة بالنسبة له جزء أساسي لحياته، زي الهوا والميه أساس الحياة، وبكده تكتشف إن اللي فهم التصوف الحق بيختفي ويبتعد... لأن مفيش صوفي مشهور، لأن هدفه إنه يكون مشهور عند الله.

- أفكارك غريبة، ولو جدلتك فيها هنتعب من غير فايدة، وياريت نسرع شوية عشان نلحق الحضرة.

قالت ضاحكة:

- لولا إنك تعبت من الجدال، كان هيبقى لينا كلام تاني في موضوع نلحق الحضرة.

- ليه؟

- لأن الحضرة في قلبك يا شيخ.

ثم أضافت:

- ومش هتكلم تاني لحد لما تخلص الحضرة.

أجابها صالح ببسمة أخرى، ثم دلف إلى الداخل مسرعًا ولحقت به راحيل، هدف صالح من هذه الحضرة أن يغوص في عالم راحيل وحكمتها، توجه معها كي ينهل من ذلك البحر الواسع الذي كثيرًا ما وصفته بالمعراج الأبدي، كلما صعد المرء درجة منه شعر أن درجاته تتزايد أضعافًا وأنه لن يصل بذلك إلى النهاية التي كثيرًا ما حلم بها وهو عند أعتابه، لكنه سمع، وأبصر، وتنفس، تيقن كلمة واحدة هي الله، لم يكن ليدركها إلا في تلك اللحظة التي ترك فيها ماضيه، وتناسى حاضره، وفر من مستقبله، ومازال صالح يحلم بذلك الهدوء وتلك السكينة التي يراها في أعين راحيل.

تخطا الساحة ودلف كلٌّ منهما من بابٍ آخر غير صاحبه، اصطف صالح مع الرجال على الجانبين بين يدى الشيخ، ومِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تجلس راحيل مصغية لذكرهم وقلبها يردد القول، وكان ذلك منتهى اللذة في نظرها، كم أحبت أن تستمع لهؤلاء وأن تنطق معهم، لكن أصواتهم تقع من مسامعها صوت الملائكة تردد وتسَبّح، حتى تسبح في عالم آخر لا هو عالم

أهل الأرض ولا ارتقت لأهل السماوات، فيعجز لسانها عن النطق، وينبض قلبها حبًّا ملْء الكون.

جلس عمار طيلة الليل يقرأ كتاب راحيل التي لا يعرف لها وجه، ولا صوت، على رغم وجودها أمام عينيه في كل لحظة، ولم تفارقه صورتها، لا يعلم لِمَ هي دون غيرها، فجلس متربعًا على أرضية غرفته واتكأ على بابها، وانسجم في قراءته حتى ذاب بين طياته.

دقت الثالثة صباحًا لتوقظه من غفلته تلك، أحقًّا قرأ كلماتها أم إنه كان في حالة إغفاء لاهي نوم ولا يقظة، تحرك من جلسته، وتوجه نحو فراشه تاركًا الكتاب بجانبه.

في صبيحة ليلته توقف بالقرب من باب غرفته، وأطال النظر إلى الغرفة الموازية لغرفته، ثم أخفض من عينيه وصار نحو الممر يقطعه في صمت، وفي أثناء سيره توقف أمام أحد العاملين في الفندق، وتساءل:

- هي الغرفة رقم " ٢٦٦" مين نازل فيها؟

رد العامل السؤال بسؤال:

- وليه بتسأل يا أستاذ؟

- لإن اللي كانت نازلة فيها طلبت مني نسخة من كتابي الأخير ومقالتش اسمها، فكنت عايز أعرف هي مين عشان أسبلها نسخة باسمها.

سرح العامل قليلًا، ثم قال:

- أيوه افتكرت، ده واحد اللي واخد الأوضة دي، مش فاكر جنسيته بالظبط، إذا كان روسي أو أسباني، بس غالبًا فرنسي لأنهم بيحبوا يجوا الوقت ده هنا.

وراح العامل يتفلسف ويضع التوقعات، لكن قوله أسكت عمار الذي هز رأسه متفهمًا، وتركه ذاهبًا إلى حيثما أراد وهو يحدث نفسه بأن ما حدث أمر غاية العجب، فكيف له أن يراها لمدة من الوقت ثم تختفي؟! لكن لم يستمر اندهاشه فقد تعود ما يحدث منذ سنوات، منذ اليوم الذي قرر فيه الرحيل.

- جان تفكيري صحيح كلش من قررت أكضي هاي الفترة هنا، الجو صافي لدرجة يفصلك بيها عن أي شي ثاني بالدنيا، نسيت موضوع لجنة التفتيش والأزمة الموجودة لحد هسه ببلدي.

قالها مهدي وهو جالس عند أطراف مركب نيلية كانت تنقله إلى شاطئ البربر في ذلك الصباح البَاكِر، يراقب من تحت نظارته السوداء التي تقيه حرارة الشمس صخور الجرانيت التي تملأ نهر النيل.

تساءلت حياة:

- لجان تفتيش إيه؟

- متابعين أخبار؟

- مش دايمًا، ولو شوفت مش بركز فيها.

- ليش هيج؟

- منحصرة في الماضى أكثر من الحاضر... بين أركان المعابد والقرى والجزر.

- وشنو الي يمنعج تطلعين ع العالم الي حولج.

- زيك كده... مفتكرش، وأظن أنه لولا كونك سياسي مكنش ليك العلم باللي بيحصل دلوقتي، أو أن يكون علمك راجع لإنها بلدك.

- إطلاقًا بالعكس، أني بقرأ في التاريخ، والفلسفة، والأديان، والفن، والموسيقى وغيرهم.... وما اجيت هنا مو من فراغ، حبيت أشوف المكان اللي قريت عنه على الطبيعة، وأطابق بين الصورة اللي تكونت بعقلي وقت اللي قريت بيها وبين الصورة الحقيقية.

- بتحب القراءة في التاريخ؟

- السياسي حتى يكون سياسي شاطر لازم يلم بمختلف العلوم والآداب، ومو بس السياسي، الإنسان اللي حاب يبقى له شأن لازم يصير ملم بكل اللي يدور حوله.

- هتخليني كده أهتم بتاريخ بلدك وأقرأ فيه.

- وليش تقري، أني موجود للي تحتاجي أجاوبج بي.

- طب أسأل سؤال لمجرد الفضول.

- اسألي.

- من مواليد سنة كام؟

- منو؟

- أنت؟

- ليلة ردة تشرين السوداء مثل ما يقول عليها أبي رحمة الله عليه.

- هو أنت فاكر كده إني عرفت... والله أبدًا.

- ابحثي.

- بس أنت لسه قايلي إنك موجود.

- إلا في هاي التاريخ.

- بس شكله من الوصف يوم صعب على بلدكم.

- اختلف وصف اليوم من شخص لآخر بالبلد.

- إيه اللي حصل؟

- لو اجتي فرصه رح أحجيلك، المهم من كل هذا إنو مكلتيلي عن برنامجك اليوم، حا نروح وين؟

- بيت نوبي في الجزيرة اللي هناك.

اقتربت المركب من الشاطئ، فهبط منها مهدي تليه حياة، توقفا قليلًا عند الشاطئ الرملي ذي الطبيعة الخلابة، ينتظران

دليلًا يصحبهما إلى داخل غرب سهيل بتلك النوق المنتشرة على الشاطئ، مر وقت قصير اعتلى فيه مهدي إحدى النوق، بعد أن التف شال أبيض اللون حول رأسه ومن تحته النظارة التي تقيه الشمس، نظر باليسار منه نحو صفحة النهر النقية الخلابة، ثم التف يمينه ليجد حياة أعلى إحدى النوق تبتسم له، وتقول:

- استعد للرحلة من دلوقتي، وياريت ترجع تتكلم مصري لحد ما اتعود على لهجتك.

- تدللين عيوني، حاتكلم مصري هسه.

تساءلت متعجبة:

- هسه؟

- يعني الآن... دلوقتي.

ثم تساءل:

- هو نحنا ما بدأنا الرحلة؟

تحركت النوق وهما مازالا يتحدثان، فقالت حياة ساخرة:

- اللي فات كان الطريق للرحلة، لكن دلوقتي هنبدأ الرحلة الحقيقية جوا القرية.

- حلوة هالمنطقة، الطريق وحده إلها يعتبر رحلة منفصلة، وكأني بمنطقة سياحية مفتوحة.

- مفيش فايدة، لازم تحط لي كلمات من لهجتك في وسط الحديث.

تبسم لقولها، وأردف:

- لإني اتعودت يا حياة.

- كلامك صح، ممكن أنا لو انتقلت لبلد تانية أتعود، وبالنسبة لوصفك للمنطقة... عندك حق أنا لما جيت هنا من كام يوم كنت مبهورة ومازلت.

- وليه جيتي هنا؟

- كنت بشتري تميمة مشهورة هنا في غرب سهيل طلبتها مني صديقتي راحيل.

- أشنو مميزاتها؟

- على العموم بقى أنا تعبت ومش بحب الغروب، بسرعة عشان نروح.

وجهت راحيل تلك الكلمات لصالح في أثناء سيرهما قبيل الغروب، فتساءل صالح:

- بسبب الموت؟

برنة حزن قالت:

- ومين مش بيخاف من الموت؟

أكملا سيرهما مصاحبَين لخيولهما قبيل الغروب في تلك الصحراء، قال صالح:

- رغم إن كتاباتك عكس كده.

- كلنا كده مش بنحبه.

- فكرتيني بقصة قرأتها.

- في رواية؟

قال مستنكرًا:

- مش بقرأ روايات.

قالت متعجبة:

- مالها الروايات؟

- كلامها ساذج وبعيد عن الواقع.

- وجهات نظر.

- تحبي تسمعي القصة؟

- اتفضل احكي.

متبسمًا:

- اسمحيلي أتقمص طريقتك في القص؟

قالت في غرور مصطنع:

- سمحت .

كان هناك أحد من الصالحين ينادي ليلًا على سور مدينته، قائلًا:

- الرحيل... الرحيل، حتى تعود أهل المدينة وأميرها صوته، بعد مدة افتقد الليل صوته، فسأل الأمير عنه فأخبروه بأنه رحل، وهنا ردد الأمير، وقال:

- مازال يلهث بالرحيل وذكره*

حتى أناخ ببابه الجمال.

فأصابه متيقظًا متشمرًا*

ذا أهبه لم تلهه الآمال.

- وإيه الفايدة من اللي أنت بتحكيه؟

- معرفش.

- أمال يا شيخ صالح؟

- ببساطة حبيت أحكيها حضرت في ذهني فحكيتها.

- وهي أي حاجة بتيجي في بالك بتحكيها؟!

- مش كله.

- ليه؟

- لو قلت مش هتصدقي.

قالت غاضبة:

- أنا مش بكذبك يا شيخ، ولو قلت حاجة حاصدقها.

- إيهدا... يعني لو قولتلك إني بحلم بيكي من فترة طويلة هتصدقي!

أجابت ببساطة لم يتوقعها:

- أكيد

متعجبًا:

- ليه أكيد؟

- لإني لما طلبت التميمة، كنت بطلبها لنفس الهدف اللي دفعك لطلب تميمة زيها، ولما ردد كلمة الأحلام وقتها شكيت، ولما أخدتها بدأت أتأكد.

- طب وأنا ليه محستش بكده؟

- بتسألني ولا بتسأل نفسك؟

أجاب وهو سارح ببصره:

- مش مهم مين اللي أتوجه إليه بالسؤال، المهم ألاقي الإجابة.

قالت في عجل:

- تسمحلي أجاوب، بس ياريت عقلك ميحملش الكلام معنى تاني، أنا حاجاوب من وجهة نظري ومن عقلي ومش بقصد أي حاجة، ولو كان حد تاني قالي كده، كنت جاوبت نفس الإجابة.

قال في نفاد صبر:

- قولي من غير أي مقدمات.

- حاقول لإني قدمت المقدمة بتاعتي ببساطة ومش مضطرة أعيدها.

ثم صمتت مدة من الوقت، وأضافت:

- لأنك بتحاول تنفي اللي شفته عنك كأنه ذنب، مع إنه شيء طبيعي لو سبت عقلك يفنده، لكن الخوف متملك منك، معرفش إذا كانت عقدة أو طبيعة في شخصيتك، أو العيب فيا أنا وأنا مش حاسة بيه.

- عقده.

- من إيه؟

- من التعلق... المرض ... أيًا كان، الكل بيصب في دايرة واحدة هي الخوف من الرحيل.

- مش لوحدك.

تساءل بلهفة:

- وإنتي كده؟

- الكل كده، مع إن الأصل في الحياة الموت، سواء كان موت الإنسان...الذكريات، حتى الحب زيه زي أي كائن حي، مهما ظنيت إنه مش بيموت حا يموت ويتلاشى وكأنه لم يكن.

حاول أن يخرجها من حالة الحزن التي بدت على وجهها، فقال:

- طب بالنسبة للغروب والشمس.

امتطى صالح جواده، ومن بعده راحيل على جوادها، انطلقا في تلك الصحراء الخالية المصبوغة بلون الشمس التي دنى منها الموت، وفي تلك اللحظة التي دنى فيها الموت من القرص الدامي وخضب النيل لونه، جلس مهدي على أريكة خشبية بالقرب من باب خلفي لإحدى البيوت، كان بيتًا صغيرًا مزركشًا بأزهى الألوان وهو مكون من طابقين، كان مهدي يجلس واضعًا ساقًا على الأخرى وراح ينفث دخان سيجارته ببطء متابعًا الأطفال الذين أخذوا يلهون على شاطئ النيل حتى قفزوا في مياه النهر، وقد بدت أجسادهم عارية مصبوغة بلون الشمس عندما بدأوا في السباحة، ارتفعت أصواتهم مهللين، ابتسم مهدي لذلك وعزم الوقوف من مجلسه مقتربًا من الشاطئ، بعد دقائق سمع صوت وقع أقدام أجبر عينيه للالتفات نحو الباب، فإذا بحياة تطل من خلفه مبتسمة تلك

البسمة التي تعودها في خلال أيامه القليلة الماضية، فأجاب الابتسامة بأخرى متكسرة وتوجه نحو الأريكة الخشبية مرة أخرى بهدوء دون أن يتحدث، وقفت حياة متحفظة بعيدًا عنه، وتساءلت في حذر:

- في حاجة؟ شيفاك مضايق.

- ماكو شي.

تساءلت من جديد مستفسرة:

- يعني إيه؟

تبسم ساخرًا، وقال:

- يعني ماكو شي... مابي شي... مفيش حاجة .

ضحكت، وهي تقول:

- طالما كده اسمحلي أسألك.

- سمحتلج، شكو؟

جلست على الأريكة الأخرى القريبة منه، وقالت:

- شكلك مضايق.

- لا أبدًا، بس جنت أفكر بشي.

- في الماضي ولا الحاضر؟

قال بمرارة:

- بالمستقبل، حيودينا ليوين؟

رفعت حاجبيها في دهشة، وقالت:

- وإيه اللي بتنتظره في المستقبل، سيب القدر يحركك إلى ما شاء الله.

- وين؟

ابتسمت، وهي تقول:

- ممكن هنا، أقصد تيجي مصر تاني.

أزاحت بسمتها العبوس من على وجهه، وتساءل:

- مرح أغير الموضوع هوايه، حسالج عن شغله بالمستقبل.

تساءلت بحذر:

- عن إيه؟ أكيد معرفش حاجة عن المستقبل.

- أكيد، بس بسألك عن السر، سر النيل اللي أسمع عنه دائمًا، يعني شربة مي منه تردني إله مرة ثانية، يعني ممكن أرجعله مرة ثانية بيوم من الأيام.

همت حياة بالوقوف من جلستها وتوجهت بالقرب من النيل، وقالت وهي تطيل النظر إليه:

- مش فكرة سر، أنت لو عايز ترجع حترجع.

- إنتي غريبة يا حياة وكلامج مثلج.

تبسمت، وقالت:

- لأ أبدًا، لا غريبة ولا حاجة، بس قصدي إن النيل مالوش سر.

ثم أكملت وهي تشير إلى مهدي:

- السر جوا الإنسان نفسه، يعني لو أنت عايز ترجع تاني حاتشرب من النيل لأن التعلق ده من جواك أنت، ولما ترجع ليه رح يكون سبب ده نفسك اللي اتعلقت بالمكان.

تساءل متعجبًا:

- ولو ماني متعلق بيه؟

- مش هتشرب لأنك معندكش استعداد إنك ترجع، فلو حابب المكان حاتتمسك بأي حاجه ترجعك ليه، حتى وإن كانت مجرد معتقدات متوارثة بدأت تبحث فيها عن مبرر لأفعالك.

بينما كانت تدنو راحيل مع صالح نحو بيت فارس، تأنى هو المسير، حينما قالت له:

- مش عارفة أشكرك إزاي إنك رضيت تتسابق معايا بالخيل النهارده، عطلتك... بس برضو الغلط منك.

توقف عن السير وأسْنَدَ ظَهْرَه إلى النخلة الشاخصة أمام البيت، وقال بعد أن عقد يده حول صدره:

- غلطت في إيه بقى فهميني؟

- لو كنت صدقتني من الأول مكنتش استغليتك، يعني كان لازم تقول إنك بتحب تركب الخيل.

- ما هو أنا حقيقي بحب أركبه، أكدب؟ وعلى العموم أنا استمتعت النهارده، على الأقل ذكرة حلوة قبل ما أسافر.

بشرفة البيت الخشبية زرقاء اللون، يقف فارس يرمقهما ويلوح لهما، انتبه له صالح فتبسم له ثم أعاد نظره نحو راحيل، وقال:

- بعد إذنك، ممكن أدخل معاكي البيت أسلم على فارس قبل السفر؟

رحبت راحيل، قائلة:

- طبعًا اتفضل، بس أنت هتسافر امتى؟

- بكرة الصبح.

- وليه مستعجل؟

- ولا مستعجل ولا حاجة، هو يومين بس اللي كنت مكلف إني أقعدهم، وبالحظ صادف آخر يوم النهارده.

- طب ما تستنى تشوف تعامد الشمس!

- مش حاقدر لازم أسافر، وعلى العموم أنا مش بهتم بحاجة زي كده.

- وجهات نظر.

أكمل سيره نحو البيت، وقال:

- هو إنتي كل لما تعرفي وجهة نظري في موضوع، تقولي وجهات نظر.

- أمال أدخل معاك في جدال طويل مش حيفيدك ولا هيفدني، وعلى العموم أنا حارجع الجمعة.

- يبقى نتقابل الجمعة إن شاء الله .

- إزاي؟

- مش إنتي مسافرة الجمعة؟

- آه، بس أوصل السبت.

- هو إنتي بتسافري إزاي؟

- بالقطر، ودرجة تالتة كمان.

- ليه كده، أنا عارف إن حالتك كويسة.

أجابت ببساطة:

- زهد.

تبسم عجبًا، وقال:

- للدرجة.

اتسعت بسمتها، وهي تقول:

- بهزر، لسه موصلتش للمرحلة دي، بس عندي فوبيا من الطيارة.

- العمر واحد يا أستاذة.

- عارفة، وممكن أموت في حادثة قطر، بس برتاح أكتر.

- طب وليه درجة تالتة؟

- بخاف برضو، الدرجة التالتة أفضل... كل لما أكون بعيدة عن غرفة السواقة ببقى في أمان... سهل أهرب.

قطع الحديث وصولهما إلى باب البيت والتقاؤهما بفارس، قال فارس:

- اتفضل اقعد معايا شوية.

- طبعًا وحاكون سعيد بكده، كنت حاكلمك بخصوص الجيوشي واللي استنتجته من.....

ابتعد صوتهما عن راحيل التي توجهت نحو غرفتها بعد ما شعرت بألمٍ بسيط في الرأس أوقفها عن الضحك والكلام، أخفت ما حل بها من ألم بسيط سرعان ما سيتلاشى مع مرور الوقت، حقًّا يمر الوقت ولا يتوقف الزمن عند لحظة واحدة، بل يمر سريعًا، لكن كيف يمر؟ ومن سيتبقى عند مروره؟ هل نبقى كما نحن أم تبقى الذكريات؟ ظنت راحيل بأن ما حل بها ألم بسيط، لكنها لم تكن تدري بأن القدر أقسم ألا يتركها دون أن يكمل سلسلة الفراق، وبرهن على أنه لابد أن يتشابك مع قدر غيرها لينسج ملحمة من العناء، الفقد، الحزن، فكان صالح وكانت راحيل.

ترى ما الذي كان يدور في ذهنه وهو عائد من بيت فارس في هذه الليلة، تجاوز القرية بمنازلها المزركشة، ونخيلها المثمر، وقلوب أهلها النقية إلى الفندق المقيم به، يجر قدمه نحوه جرًّا بعد أن أعْرَض قلبه عن الذهاب دون مصافحة راحيل والقاء نظرة على وجهها المشرق، وعينيها السوداوين، وابتسامتها التي تنفرج عن أسنان لامعة متراصة يشغل الفراغ حيزًا صغيرًا بين أسنانها الأمامية لا يكاد يُرى إلا من قريب أو عند تدقيق النظر في وجهها، صعد إلى غرفته وبدأ في كتابة خطوات

جمع أمتعته كما اعتاد حتى انتفض مسرعًا من على مقعده في الغرفة كأنه تذكر شيئًا مهمًّا، وبدأ يدور حول نفسه في سرعةٍ خاطفة حتى توقف للحظات وخاطب نفسه، قائلًا:

- براحة يا صالح طول ما أنت متوتر كده مش هتلاقيها.

عاد من جديد يتحرك في الغرفة بهدوء مفتشًا بين ثيابه التي هم بوضعها في الحقيبة، بعدما تأكد من أنها لا تحمل الشيء الثمين الذي يبحث عنه، ثم أكمل البحث بين كتبه وأدواته الموجودة داخل الغرفة لكنه لم يعثر على شيءٍ.

(٦)

- قوليلي!

- عن إيه؟

- ماكو شي.

- متعلقنيش وقول.

- والله ماكو شي، بس حسيتج شاردة كلت أخرج من هاي الحالة.

- لأ أبدًا، بس مستنية زي ما الكل مستني.

- وهذا يخليج متوترة.

- قلقانة للشمس ما تتعامد.

- هوه هالشي ممكن يحصل؟

قالت وهي تقف على أطرافها، تقلب نظرها بين الواقفين:

- مش دايمًا، الحقيقة أنا منتظرة راحيل صحبتي.

- هي عايشة هنا؟

- لأ، هي من القاهرة وجارتي، وكانت جاية هنا في زيارة لعمها.

- فهمت هسه.

- مش عارفة ليه اتأخرت؟

سَكَتت قليلًا ترصد الطريق المزدحم، ثم قالت:

- أهي وصلت.

اقتربت نحوهما راحيل وأومأت لمهدي برأسها بتحية خفيفة، تجاذبت معه أطراف الحديث، حتى قالت حياة:

- راحيل كانت عايشة فترة في العراق ورجعت مصر.

تساءل مهدي:

- من كم سنة؟

أجابت بلهجته:

- من دعش.

- والله وين جنتي عايشة بالعراق؟

- في الديوانية.

تساءل باهتمام:

- وليش رجعتي؟

- بابا كان عايزني أخد الثانوية من مصر.

بعد مدة قصيرة استأذنت راحيل وذهبت إلى حيث الجموع الواقفة تشاركهم شوقهم لرؤية ذلك الحدث بعيداً عن مهدي الذي كان حذراً في اختلاطه بهما، واكتفى بحياة وواحد من حراسه، التفت لحياة وتساءل:

- شبيها عبالك حزينة؟

صاحت بصراحتها:

- كلامك ضيقها.

قال ضاحكًا:

- إنتي على طول هيج أم لسان، وعلى العموم أشنو بها؟

سرحت حياة ببصرها وكأنها تسترجع ذكريات تلك الأيام، وقالت:

- أبوها وأمها ماتوا هناك في حادثة طريق، وسهرت ليلة كاملة تنتظر رجوع جثمانهم لكن مرجعوش، ولما سألوا في السفارة اكتشفوا إن الجثث اتفحمت للدرجة اللي كان صعب عليهم نقلها، وكمان هي ملهاش إخوات، فحياتها كانت صعبة، واللي بقى ليها منهم هي الفلوس اللي كرهتها ورفضت إنها تصرفها لحد دلوقتي.

قال في حكمة:

- قدرهم يموتون هناك، ذكرتيني بمدرس التاريخ اللي جان ينطيني، جان مصري ومات نفس الموتة بس جان ببغداد مو بالقادسية.

ثم أردف، متسائلًا:

- لحضة بس... هيه هاي راحيل لو مجرد تشابه أسماء؟

- أيوه، هي دي راحيل صادق صاحبة كتاب الطريق للملكوت.

- سبحان الله جنت أتمنى إنو أشوفها لأن نوار طلبت مني أجيبلها هذا الكتاب، بس كلتلها إني مرح أبقى بالقاهرة وصادف إني قابلتها آخر يوم اللي هنا.

- بسيطة جداً راحيل معاها نسختين من الكتاب، ادعي إنها متكونش اتصرفت فيهم.

وسط تلك الجموع المتناثرة بالقرب من المعبد الكبير بأبو سمبل، تنتظر شروق شمس يومهم هذا، مترقبين خطواتها التي باتت تخطو حثيثة وسط احتفالات تنوعت بين الغناء والرقص الفلكلوري المتعارف عليه بين أبناء المنطقة، حتى تعامدت على وجه الملك المصري رمسيس الثاني، كانت حياة تقف على مسافة من مهدي يتابعان ما كان يحدث، مرت الشمس من فوقهما متخذة طريقها الذي استأنسته منذ آلاف السنين في ذلك اليوم نحو وجه رمسيس الثاني، أكانت للشمس الخِيَرَة في تلك اللحظة بأن تستقر فوق هذه البقعة من الأرض؟ أسحر هذا أم عبقرية لم تتوصل إليها عقول المعاصرين؟ أم إنه الجزء الخفي في هذه الحياة، فتعامد الشمس وحده ليس من الأمور الخفية التي حيرت عقل عمار، حيث كان واقفًا بين الجموع وهو في حيرةٍ من أمر راحيل التي تقف أمام عينيه تشاهد هذا الحدث للمرة الأولى في حياتها، تساءل كثيرًا عن ذلك السر المصاحب لتلك الفتاة منذ اليوم الأول الذي أبصرها فيه في صالة الطعام، أكانت حقًّا إنسان أم إن عقله بدأ ينسج قصة جديدة كانت بطلتها هذه الفتاة، تَرَاجَعَ عائدًا إلى الفندق منتظرًا مَجِيء راحيل إن كانت حقًّا إنسان، وفي أثناء ارتقابه في بهو الفندق تقدم نحوه أحد العاملين به، وقال:

- أهلًا أستاذ عمار، أنا سعيد جدًا إني شوفتك، وكنت بتمنى بس إنك تمضيلي على آخر رواية كتبتها، ثم أشار إلى الكتاب الموجود بيده اليمنى، وأكمل:

- أهو أنا اشتريته وأنا جي من القاهرة بعد ماعرفت أنك هتنزل عندنا هنا.

تبسم عمار، وقال وهو يمد يده إليه:

- طبعًا حامضي لك على الكتاب وأكتبلك إهداء كمان، مع إنك اشتريته ومطلبتهوش مني.

قال العامل:

- ما أنا أخدت برضه كتاب الطريق للملكوت من بنتي راحيل، جت من كام يوم وادتهولي.

تساءل عجبًا:

- راحيل! هي هنا من امتى؟

- لأ، هي مش نازلة هنا، كانت يوم التلات الشابة اللي كنت بتكلم معاها وقت الفطار، ثم تابع قوله:

- مش نازلة هنا، كانت بتنزل زمان وهي صغيرة مع أستاذ صادق الله يرحمه أبوها، بس صحيح الأوضة اللي كنت بتسأل عنها، نازل فيها سايح .....

ولم يستمع عمار لما كان يردف به هذا العامل، ثم سأل نفسه، قائلًا بصوتٍ واضح، في أثناء ما كان جالس في بهو الفندق:

- هي ليه خبت نفسها عني؟

تولّى عنه العامل بعد أن بلغ غايته، وعاد عمار يقرأ في الكتاب مجددًا منتظرًا قدومه على رغم علمه أنها تستقر في مكانٍ آخر غير هذا، مر الوقت عليه وهو منسجم في القراءة دون أن ينتبه لراحيل المارة أمامه تلازم مهدي وحياة.

بداخل صالة الطعام على الطاولة المجاورة للنافذة الزجاجية بإطلالتها النيلية اتخذ ثلاثتهم جلستهم، أكملت راحيل حديثًا قد طال بينهم من قبل، وقالت وهي تقوم بالتوقيع:

- من وقت ما الورق كان بيطبع وربنا قاسم إن النسخة دي تروح ليك.

قال وهو يهم بإشعال سيجارته:

- هيه مو اللي تحديدًا، نوار جانت طالبه مني.

تساءلت حياة متطفلة:

- مين نوار؟

- بنتي .....

أومأت حياة برأسها وقد غلبها الكدر:

- أمم.

لمحت راحيل الحزن في عين صديقتها، فتعجلت القول:

- ما علينا المهم إنه يعجبها.

ومدت إليه يدها بالكتاب، وهي تقول في أدب:

- اتفضل.

قال مُمتنّ:

- شكرًا جدًّا، مو هي طلبته من سمعت عن الهوسه اللي سواها بالأيام الأخيرة.

أجابته وهي ترتسم البسمة على شفتيها:

- كانت فرصة كويسة إني أشوفك أستاذ مهدي، وأكيد أنا سعيدة بكده.

وفي أثناء الحديث اعتذرت حياة عن انسحابها مبررة ذلك بألم قد حل بها تلك اللحظة، تقهقرَت عائدة إلى غرفتها فما كان من راحيل إلا أن أسرعت بالخلف منها ومهدي في حيرةٍ من أمرهما.

استوقف راحيل في طريقها، نحو غرفة حياة صوت عمار الهاشم، القائل:

- أستاذة راحيل.

- أستاذ عمار، أهلًا بيك.

- كنت مستني إنك تيجي؟

- سبحان الله مع إني مش نازلة هنا، ومش دايمًا هنا، ممكن من يوم التلات لما اديتك الكتاب.

ذهل ورفع حاجبيه عجبًا، متسائلًا:

- وأنتِ مجتيش هنا بعد المرة دي؟

- جيت.

- امتى؟

- النهارده، زي ما أنت شايف.

- لأ، أنا قصدي يوم غيره.

هزت رأسها في أسف، وأجابت:

- أمم... لأ.

- ميهمكيش تعرفي؟

قالت بلهجة جافة:

- حقيقة، لأ.

- بس أنا حابب أقول.

- اتفضل أنا سمعاك.

وبدأ يسرد:

- أنا شوفتك التلات بالليل في الفندق واتكلمت معاكي.

فتبسمت عجبًا، وقالت:

- أنا مكنتش هنا كنت في..

توقفت عن الحديث، ثم عادت تقول مرتبكة:

- كنت في مكان تاني بعيد عن الفندق.

- طب أنا إزاي شوفتك؟

- أحيانًا الكاتب بيعيش جوه جو القصص اللي كاتبها فترة من الوقت، وبعدين بيرجع تاني لحياته الطبيعية، بالذات لما تكون القصص المكتوبة في قوة قصصك، خصوصًا القصة الأخيرة اللي كان اسمها.....

أخذت تعتصر رأسها في ألمٍ شديد تحاول أن تتذكر، فأجابها عمار على عجل:

- قد كنت عطرًا.

أومأت برأسها، قائلة:

- بالظبط.

شرد به الذهن لحظة، وقال:

- بس منقدرش نطلع على الغيب، أو نعرف أمور كنا نجهلها، زي اسمك وإنك صاحبة الكتاب.

تساءلت بحذر:

- أنت إزاي عرفت... أنا فاكرة كويس إن وقتها رفضت أقول أنا مين، وخبيت اسمي الحقيقي عنك.

قال وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها:

- مش مهم، المهم إني عرفت، فراسة المؤمن تغني عن أي شيء.

تبسمت ثم أخذت البسمة في الاتساع، وهي تقول:

- لأنه يرى بعين الله.

ثم تساءلت:

- هو أنت قابلته؟

متعجبًا:

- مين؟

- الشيخ الجيوشي.

- فين الشيخ ده؟

- في قرية أبو سمبل لو تعرفها... أنا مشفتش الجيوشي، بس ده كلام عمي، وقالي إنه عرفه من الجيوشي.

- أسمع... لكن مروحتش هناك قبل كده، ثم أردَفَ:

بس عايز أعرفه.

قالت:

- لو تحب تروح دلوقتي أنا مستعدة، بس أطلع أشوف حياة الأول.

صعدت الدرج بهدوء، وعندما وصلت إلى نهايته اتجهت يمينًا تسلك ممر الغرف تلتمس الوصول إلى غرفة حياة، أما عمار فعاد إلى مجلسه يُكمل القراءة.

- مكملتيش القاعدة مع مهدي ليه؟

أغلقت حياة باب الغرفة بعد أن دلفت منه راحيل، وأجابت بنبرة ممتلئة بالحزن:

- أنتِ أكيد سمعتي اللي قاله.

- عن نوار بنته؟

- أكيد.

استقرت راحيل على فراش حياة، وتساءلت في حذر:

- ودي حاجة تزعلك؟

جلست عند أطراف فراشها، وهي تقول:

- مش عارفة إذا كانت حاجة تزعلني ولا لأ.

- بنبرتك الحزينة اللي بتكلمي بيها دي، أجزم إنك زعلانة وجدًا كمان.

نهضت و تنهدت، وقالت:

- آه، وأوي كمان، الأيام اللي فاتت حسيت بشعور غريب اتجاهه أكتر من اللي كنت بحسه وأنا بشوفه في التلفزيون، حسيت إن اللي فات ده كان إعجاب، وإن الحب الحقيقي كان في اللحظة اللي ابتسم فيها واحنا في أبو سمبل وهو بيقول ما اخترعت، ثم هزت كتفيها، قائلة:

- على العموم، هو ملوش ذنب، من فين يعرف إنه كان حايشوفني وإني كنت معجبة، كويس إني قابلته عشان ما أعيش في الوهم ده أكتر من كده.....

أخذت تتحرك ذهابًا وإيابًا من أمام راحيل وهي تهرول بالحديث دون أن تلتقط أنفاسها:

- هما يومين وأنسى كل حاجة، ما هو مكنش ينفع أقعد تحت وأنا حاسة إني حزينة، كمان عشان ميخدش باله، صح ولا لأ؟

استوقفتها راحيل، وهي تصيح بها:

- اقفي بقى، دماغي صدعت ودوخت.

أضافت في عجل:

- مش معقول من أول لما أشوفه أبقى معجبة بيه، وبعدين أشوفه قدام عيني والشعور اللي جوايا يزيد، مستحيل كل ده صدفة، أو ممكن يكون وأنا اللي ببرر لنفسي، وفي النهاية قالت:

- حاحاول أنسى ومعلقش نفسي أكتر من كده، لحد لما أعرف السبب من كل اللي حصل.

فلا تملك أن تقول سواها، تألمت من قوله وتهاوت أحلامها في تلك اللحظة، فهل تندم على لحظات وهم جسَّدها لها عقلها البائس؟ أم تسعد لأنها تيقنت حقيقة شعورها في تلك اللحظة؟ فهو إعجاب ولا أكثر من ذلك، هذا ما كانت تخدع به مشاعرها المتأرجحة حتى لا ينجرح قلبها من ذلك البعد، تذكرت قول راحيل بأنه لا حب في تلك الحياة، فمن نظرة واحدة نبني صرحًا من الأحلام، ونتخيل كل ما نحبه في من أحببنا رؤيته، وبعد أن يقترب كل طرف للآخر تتكشف له حقيقة الإنسان، وأنه لا كمال في أي إنسان، وتتهاوى الأحلام وتتجلى حقيقة الإنسان، وهي على نفس الحالة من الشرود، كانت تسبح لله حمدًا أنها مازالت تحتفظ بتلك الصورة الجميلة لمهدي ولم تتشوه بعد، فلا ذنب له بزواجه فهو ليس بنبي يتنبأ برؤيتها في يومٍ من الأيام، حتى وإن كان ذلك، فمن أين للأنبياء العلم بمصيرهم في الحياة؟! فهم سائرون فيها تاركين لله تصريف أمورهم ولا يملكون سوى الصبر.

مازال عمار ينتظر في بهو الفندق حتى يحين الوقت المناسب كي يلتقي مع راحيل مجددًا، ظل جالسًا كما اعتاد منذ اليوم الأول له في المدينة، تظن أنه سوف يطوف خلال رحلته

تلك في كل أرجاء المدينة الواسعة، ويلتقي مع قلوب أهلها النقية، يطلع فيها على عبق الماضي وأصالة الحاضر، لكنه وفي الحقيقة أضحى يطوف حول قلب راحيل، وفي الشوط الأخير من الطواف غير مساره إلى الطواف حول عقلها، كان كل ما حدث له حتى تلك اللحظة التي يجلس فيها ممسكًا بكتاب راحيل بمنزلة منام قد طال، وحان الوقت كي يستيقظ، وعندما عزم النهوض وجد أن كل ما حوله ساكن لا حياة به كأنه في مدينة الموتى، فعاد إلى نومه مرة أخرى، مر عليه الوقت وهو في تلك الحالة من التناغم في قراءة ذلك الكتاب حيث لم يتبق إلا صفحات قليلة إذا ما اجتازها سينهي القراءة ويبدأ السير نحو ذلك الطريق، طريق الملكوت الذي بدأ السير فيه بالتدقيق والتأمل، ومثلما كان التأمل بداية طريق جسد خليل الله للنار وروحه للملكوت، كان أيضًا بداية طريق آخر لعمار منذ خمسة عشرة عامًا عندما جلس بجانب الدراويش الجالسين على مقربة من مساجد الحي الذي يقطنه، وبدأ يتأمل ملامح وجوههم وينسج حولها القصص بعد أن يستمع إليهم، تلك القصص التي ذاع صيتها فيما بعد ورفعته إلى مَصَاف الأدباء الكبار.

(٧)

- إنتي مين؟

أجابت راحيل في لهجة لا تخلو من التفلسف:

- سؤال غريب توقعت إنك تسأله قبل ما تعرف حقيقتي، لكن النهارده بعد ما عرفت إني راحيل صادق استغربت السؤال.

قال عمار وهو يهم المسير معها عند أعتاب القرية:

- لو الاسم بيدل على كيان الشخص وكينونته مكنش في حاجة إننا نسأل بعض على بنحب إيه، بنكره إيه، ولا كان في حاجة اسمها العشرة والصداقة والقرابة، أنا بسأل عن النفس، إنتي مين في كل الشخصيات اللي شوفتها فيكي؟ راحيل صادق الكاتبة الشهيرة صاحبة عمود قلبي يحدثني في جريدة القارئ، ولا الإنسانة البسيطة الخفيفة اللي شوفتها أول مرة في مطعم الفندق، ولا الطيف اللي مفرقنيش من أول يوم شوفتك فيه.

- أبسط من كل ده، أنا سطور قليلة في كتاب القدر مجبرة إني أقراها لحد لما أعرف نهايتها، وكل سطر بيتقري يتمحي ويفضي مكان يتكتب فيه قدر شخص تاني، ثم هزت كتفيها، وأردفت:

- أنا إنسان طبيعي كان نصيبه من الدنيا أنه يقدر يترجم أفكاره في شكل كتابات، غيري أفكارهم بينقلوها في لوحة تشكيلية، والبعض في شكل لسان فصيح، أما النوع

الغريب في دول هما اللي بتحس من شكل ملامح وشهم، وتستشعر في صوتهم بعمق ينقلك للجانب الخفي في الدنيا، تكفي نظرتهم ليك عشان يقدروا يتعرفوا على مقدار الحب أو الكره، مقدار أي شعور إنساني جواك.

هز رأسه في أسف، وقال:

- ولا أبسط ولا حاجة، إنتي بكده حيرتيني أكتر وضفتي للأنواع اللي أنا قولتها نوع جديد غامض.

- متأزمش الموضوع، مجرد لحظة تجلي قولت فيها كلام طار في الهوا زي ملايين الكلمات اللي اتقالت في نفس الوقت والهوا عليه أنه يجمعها، لكن بتروح فين؟ ... معرفش!

حدق فيها ضاحكًا:

- إنتي بتقولي إيه؟

- متحطش في بالك، مجرد أفكار ساذجة بقصد بيها الدعابة في أوقات كتير، أسيبك هنا وكمل أنت لحد البيت الأخضر اللي في الوش ده "مشيرة إلى الأمام".

هو إنتي شوفتيه؟

- عمي مرضيش، مع إني كنت حاسة إني حاشوفه ... بس للأسف طلع إحساسي غلط.

- ممكن تيجي معايا وتشوفيه؟

- مش حا ينفع لإني وعدته.

في بيتٍ صغير لا يختلف تصميمه كثيرًا عن بيوت القرية، دلف عمار من بابه حذرًا، تجوب عيناه البيت متسائلة عن الجيوشي، بدأ يتنقل من غرفة لأخرى بعد أن سرى في قلبه الأمان، بعد دقائق من التنقل الذي ابتغى خلالها لقاء الجيوشي، وفي أثناء تجوله هَمَّ ارتقاء درجات السلم الموجود بالقرب من الباب الخلفي للبيت الساطع بنور الشمس الدافئة التي أزفت على الرحيل، سمع صوتًا رخيمًا، يقول:

- كيف وجدها؟

التفت إليه، وتساءل في دَهْشَةٍ:

- أنت؟

- نعم أنا العجوز أو الدرويش، حمدًا لله إنك مازلت تتذكرني.

هبط عمار للدرجة الأولى من السلم، وهو يقول بلهفة:

- إزاي أنساك؟ وأنت في كل لحظة مصاحب لعقلي، لولا كلماتك كان زماني دلوقتي في حياة تانية بائسة وعذاب مقيم ما بعده عذاب، إزاي أنسى صوتك وأنت بتقولي متخسرش أخرتك عشان لحظة فانية.

تبسم الشيخ بسمته الحانية، وقال:

- أهم شيء، أخبرني كيف وجدتها؟

أجاب وهو يتبع الجيوشي نحو الغرفة الواقعة إزاء باب البيت، في تأثر شديد:

- وجدتها غريبة عجيبة، خدت كل اللي كنت بتمناه من الدنيا، بقيت مشهور للدرجة اللي صعب أوصفها بعد ما ظنيت إني فشلت في كل حاجة، أنت فتحتلي باب جديد، حياة تانية، دورت عليك كتير لكن ملقيتش ليك أثر، كنت كل ليلة في زيارة إلى مساجد القاهرة بدور عليك، وكل ما أدور ألاقي قصة جديدة من درويش جديد تفتح لي باب تاني من الغموض، وأبدأ أنقلها للقراء اللي بدأ عددهم يزيد متأثرين بالقصص اللي بكتبها، لكنهم مكنوش يعرفوا إن القدر هو اللي سطرها، ويكأن روحك معايا بتساعدني في كل لحظة.

أجابه العجوز أسمر البشرة، أبيض القلب، قائلًا:

- مهما كانوا متأثرين يا ولدي من القصص، بعد ما ينتهوا من القراءة بينسوا ويذهب كل منهم في طريقه في الحياة، تشغله دنيته بكل ما فيها، ولما تصدر منك قصة جديدة بيحصل نفس التأثر وبعدين بينسوا، المهم الدرس اللي تتعلمه في الأخير يا ولدي.

جلس عمار بجانب الجيوشي في تلك الحجرة ذات القبة العالية المطلية باللون الأبيض، وقال:

- صدقت.

ببسمة انفرجت عن أسنان متراصة ناصعة البياض، قال:

- كنت مستني قدومك من ليلة امبارح، منتظر أشوف تعبيرات وجهك لما تشوفني.

اتسعت عيناه دهشة، وهو يتساءل:

- من فين عرفت؟

لم يجب الشيخ، فصمت عمار قليلًا، ثم أردف:

- بعد حوالي خمستاشر سنة من آخر حديث بنا، أدركت أن في الكون أسرار ولي منها سر، مبقتش أندهش من الأمور اللي بيشوفها البعض أمور غيبية، لإني عرفت وفهمت إن الغيب أنواع منه المطلق والمقيد، وكنت أنت من أصحاب الغيب المقيد، معرفش امتى وإزاى بقيت أنا زيك أو في درجة من درجاتك، عشان كده مبقاش في لزوم إنك تجاوب على سؤالي.

- ومش عايز تعرف جيت هنا إزاي؟

أجاب ببساطة:

- القدر بيكتب واحنا بنقرأ.

قال في حبورٍ:

- أتغيرت يا عمار، مكنتش أعرف إنه في اللحظة اللي طلبت منك فيها إنك تجمع قصص الدراويش وتنشرها، إنها هتغيرك زي ما أنا شايف.

أخذ عمار نفسًا طويلًا، ثم بدأ يسرد في سلاسة:

- ولا أنا، كنت كل لما أستمع لدرويش بيحكي قصته قلبي تصيبه رعشة خفية، ولما أرجع البيت وأبدأ أكتب القصة بأسلوب أدبي، أسرح وأفكر في مصيري حايكون زيهم ولا لأ.

شد العجوز على يده، وهو يقول:

- النهايات مش واحدة على قد ما بانت لك يا عمار، لكل واحد قصة ونهاية مختلفة مثل خطوط اليد الواحدة، من بعيد تظن إنها متشابهة، لكن لما تدقق فيها هتكتشف إنها مختلفة.

- وبالنسبة لراحيل؟

- عايز تعرف عنها إيه؟

- مصيرها؟

تلك هي الليلة الأخيرة لإقامة عمار في هذا الفندق الذي بدا شاغرًا بعد أن ارتحلت عنه بعض الأفواج السياحية، بعضهم قصد الأقصر والبعض الآخر عاد إلى بلاده، حتى مهدي رحل منذ ساعات وحياة قبَيْلَ رحيله بلحظات، فهي الليلة الأخيرة أيضًا التي سيتحرر بعدها من قراءة كتاب راحيل، جلس في بهو الفندق كما اعتاد ممسكًا بكتاب راحيل، وبدأ يقرأ آخر ما وَرَد فيه من قول:

(مازالت الروح تتنقل بين آيات الله، تسير في طريقٍ جديدٍ كثيرًا ما كذبت وجوده، طريق أهل الحب الذين قالوا: "اللهم

اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا"، ذابوا بين أسماء الواحد القهار حتى يظن البعض أنهم قد ضلوا الطريق؛

فأجَابُوا حينها، بقولهم: "لن تفهمها حتى تتذوق خمرتها"، نقّبْتُ عن الخمر الذي وصفوه ولم أجده، حتى علمت بأن الخمر ما هو إلا الحب، علمت أن وجود ذلك العشق ليس بجديد لكنه كان موجودًا من قبل، خرجنا إلى الدنيا وهو ملء قلوبنا، لكن أتربة الحياة قد أخفته لكنها لم تمحه، فهو حاضر في قلوبنا في كل لحظة، بمنزلة الماء في وسط الظمأ، والبعض قد رأى ذلك الماء والآخر حسبه سرابًا، ومن رأى الماء وذهب إليه وجده ما هو إلا نورًا من أنوار الله كانت مخفية عن أعين البشر، ولم يرها سوى من أحب الله، لم يرها سوى من زهدوا في الدنيا، على رغم أن ذلك الشيء غير مرئي، لكنه مرئي في قلوب العاشقين؛ لأن قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرين...

- على فين كده؟

- على القاهرة، خلصت اللي ورايا هنا ومفيش داعي إن فترة وجودي تطول، وإنت شيفاك مجهز نفسك للسفر.

قالتها راحيل الجالسة داخل محطة قطار أسوان تنتظر قدوم القطار المتجه إلى القاهرة، ثم تساءلت؛

- وأنت راجع القاهرة؟

- مع إنه حاجة بديهية إني أرجع القاهرة لإنك شيفاني واقف بشنطتي مستني زيك، لكن إنتي إيه إللي خلاكي تسألي؟

- احذف يا أستاذ عمار من قاموسك كلمة حاجة بديهية، لأن القدر دايمًا يفاجئنا بأمور جديدة مكنتش في الحسبان.

- زي؟

- زي اللي احنا فيه دلوقتي.

- وضحي!

- من الطبيعي زي ما أنت قولت إنك ترجع القاهرة، لكن أنا عارفة إنك مش حترجع وحا تستقر هنا في أسوان لفترة محددة بعلم الله، وملناش أي علم بيها.

تساءل بلهجة طبيعية:

- عرفتي منين؟

- مجرد توقع، ظنيت إن لقائك بالجيوشي حيغير حياتك وينقلك من عالمك المألوف لعالم تاني غريب عنك، لكنه في نفس الوقت المقرب لقلبك، مش مجرد لقاء عابر جمعته الصدفة، لأن الصدفة ملهاش مكان في عقول العقلاء، العاقل على ثقة بأن الصدفة تدبير أكبر من أي توقع، ثم تراجعت في القول:

- وطبيعي برضه إن توقعاتي تكون غلط.

قال بلوم:

- وليه التشكك اللي بتهدمي بيه أي توقع سليم؟

رفعت كتفيها، وهي تقول:

- طبيعة إنسانية.

- على العموم كلامك صح، مكنش لقائي بالجيوشي مجرد صدفة، سواء دلوقتي أو قبل كده، كله كان تدبير لا يعلمه إلا الله.

قالت وهي تحاول أن تخفي عينيها من أشعة الشمس:

- طالما كده، إيه اللي جابك؟

مد يده لها ببعض الوريقات، قائلًا:

- الرسالة دي ملخص لقصة حياتي، أرجو إنك تنشريها بس بعيد عن اسمي، ولو حد سألك عني انكري أي لقاء كان بينا.

أومأت برأسها، وهي تقول:

- متقلقين، لكن كنت عايزة اسألك إذا كان الحوار اللي دار بينك وبين الجيوشي مذكور!

تبسم بسمة لا معنى لها، وهو يقول:

- وده يهم القارئ؟

- يهمني أنا.

- متشغليش بالك بعدين هتعرفي كل حاجة.

تساءلت:

- هو أنت عرفت مكاني إزاي؟

قال باسمًا:

- زي ما إنتي عرفتيإني حاستقر هنا.

- لقاء واحد مع الجيوشي يعمل فيك كده!

- هتعرفي بعدين، بعد إذنك...

نأى عمار عنها، وصعدت هي القطار بعد دقائق من مغادرة عمار المحطة، وبداخل القطار اتخذت راحيل مقعدها ولم تعبأ بأصوات البائعين المارين بين الحين والآخر، بعد ساعات طويلة تخطى القطار فيها محطة قنا مُتّجهًا إلى مصر السفلى، كانت فيها راحيل شاردة فيما كان من أمر صالح ذلك الشيخ الشاب، حتى قررت أن تنحيه جانبًا، واعتزمت قراءة رسالة عمار التي جاء فيها:

(لم أكن في الماضي سوى شاب فشل في الحب، والتعليم، والعمل، و ضاع آخر آماله فقرر الذهاب دون وداع، لكن لم يستطع، وعَرجَ إلى كل زقاق وحارة وشارع في الحي الذي ترَعْرَعَ فيه كي يُلقي عليه نظرة الوداع بعد أن أبى قلبه الذهاب دون وداع).

بعد أن شكت قدمي من ألم السير جلست بجانب أحد الدراويش على مقربة من مسجد الحسين، هؤلاء الذين كنت أراهم حين الذهاب والإياب مدعين الرضا والصبر، ينتظرون إحسان المارة، ويتمتموا بكلماتٍ غريبة لا أعلم إن كانت مناجاة للّه أم مجرد خرافات ترتبت على عقلهم البائس الذي عصفت به الأماني مثلي.

حتى التفت إليَّ الدرويش الجالس بجانبي، وقال:

- هل تظن أن هؤلاء الجالسين ولدوا هكذا؟

التفتُّ إليه، وتساءلت في حذر:

- من أين لك العلم بما يدور في عقلي؟

تبسم بسمة حانية، وقال:

- من أنين صوتك.

وبعد طول حديث مر بين لجاجة وجدال، تبسم مرة أخرى، وقال:

- خذ من هؤلاء قصصهم وانشرها لعلك تجد فيها سبيلًا يدفعك عن الاستسلام.

فتساءلت:

- من أين لك العلم بما أنا قادم عليه؟

- سبق وأخبرتك بأن أنين صوتك دال على حالك.

سخرت من قوله، وتساءلت:

- وبما إنك فيلسوف، نبأني بما هو آتٍ!

قال وهو يعتزم الذهاب:

- لا علم لي بالغيب، لكن اتقي فراسة المؤمن لأن المؤمن يرى بعين الله.

تساءلت:

- آلله عين؟

- مالها طرف.

متعجبًا:

- من أنت؟

- أنا أم نحن؟ "مشيرًا للدراويش".

- لا يشغلني سواك.

- أنا مثل هؤلاء.

- كيف؟

ذهب وتركني جالسًا وسط الدراويش فبدأت في الإنصات إليهم ودونت ما سمعت، ومن قصصهم أضحية عمار الهاشم الذي تسابق عليه المعجبون من هنا وهناك، عدا واحدة كانت تجلس على الطاولة المجاورة لي مع صديقتها في صالة طعام فندق كنت أقيم به في أثناء زيارتي إلى أسوان، شغلني أمرها وبدأت أتبعها حتى سلبت مني العقلَ، كنتِ أنتِ يا راحيل، أخذتُ أتساءل مرارًا، كيف لكِ أن تحدثي بداخلي كل هذا الصخب؟ ولم أستطع الإجابة، حتى علمت بأن للأقدار كاتبًا بارع الوصف والخيال ردني إليه بعد أن رأيت متاع الحياة، سبحانه ذي العطاء والسخاء، أكتب إليكِ الآن بعد أن جذبني قدري إلى هنا، فبعدما كنت أجمع قصصهم وأنشرها، أضحيت واحدًا منهم له قصة اكتتبها وألقى بها في بيداءٍ خالية لا يُسمع فيها سوى صوت الريح القادم، الذي يحمل معه ذكريات من ارتحلوا بقلوبهم وعقولهم، تاركين ماضيهم للريح يعصف به أينما شاء.....

(٨)

فتحت سعاد الباب، وقالت وهي ترفع حاجبيها عجبًا

- إيه اللي جابك النهارده؟!

صاحت بها راحيل، ثائرة:

- طب أدخل أرتاح وبعدين نشوف موضوع جيت النهارده من بكرة!

دلفت راحيل إلى الداخل مع صوت نجلاء الذي صدر من بعيدٍ حيث المطبخ، قائلة:

- مين يا سعاد؟!

ارتفع صوت راحيل، وهي تقول:

- أنا يا نجلاء.

هرولت إليها نجلاء، قائلة:

- هو إنتي مش كنتي جاية الحد، إيه اللي جابك النهارده؟

قالت راحيل في لهجة لا تخلو من الاستنكار:

- إيه يا جماعة أنتوا مش عايزني، وأردفت تقول في لهجة مزاح:

- أرجع لفارس تاني، ده كان زعلان وأنا ماشية.. آه والله.

قالت نجلاء ضاحكة:

- ما هو احنا مش عايزينك علشان الصداع اللي بتعمليه ده.

قالت بطريقة طفولية معتادة:

- أنا؟!

- أيوه إنتي، وبلاش جو الصعبانيات ده... لمي الكراكيب دي عقبال ما أحضر العشا.

نفذت راحيل قول نجلاء وهي تدندن بخفوت كلماتٍ كثيراً ما اعتادت التغني بها منذ أن قرأتها، ومازال ذلك الشاب، أبيض الوجه، أقنى الأنف، صاحب العينين السوداوين، يجلس بالقرب من المائدة منهمكًا في مُطالعة بعض الكتب... عزم جمع تلك الوريقات الصغيرة التي دوَّن فيها قبل قليل بعض العناوين والمعلومات عن موضوع رسالة الماجستير التي قرُب على الانتهاء من تدوينها، وسط هدوءٍ قد ساد البيت الجالس به إلا من أصوات تنبعث من ذلك التمثال الصغير الموضوع بالقرب منه، أمام أعين رجل في بداية العقد الرابع من عمره ساند رأسه إلى المنضدة، يتابع بشغف حركات ذلك التمثال، خرج الشاب عن صمته، وقال وهو يلملم أوراقه:

- مش حتنام يا صالح، الساعة قربت على اتناشر (ناظراً إلى الساعة المستقرة على الحائط).

أجاب صالح بلامبالاة:

- شوية كده وأدخل أنام.

- براحتك... بس أنا خايف لتنام وأنت قاعد كده مكانك.

- لو نمت حصحى قبل الفجر متقلقش.

- ماشي... عايز حاجة؟

- لأ.

توجه هاشم نحو غرفته وفي الطريق إليها توقف قليلًا، وتساءل:

- بتاع مين التمثال ده صحيح؟ كل لما أجي أسألك أنسى.

- تمثال راحيل.

- راحيل اللي أنا أعرفها؟!

اعتدل في جلسته، وقال:

- هو في كام راحيل أنت تعرفهم؟ ولا في كام راحيل في البلد أصلًا؟

أومأ بحاجبه، وقال:

- ما أنا بقول برضه إن الحاجات الغريبة دي بتاعتها، وأمسك بالتمثال، وقال:

- شكله جذاب جدًا، وأصوات الموسيقى اللي بيطلعها غريبة... تمس القلب.

- آه.

- تصدق إن التمثال ده أوحى لي بفكرة بحث الدكتوراه.

- مش لما تخلص الماجستير الأول

جلس هاشم بجانب أخيه ساندًا تلك الكتب إلى قدمه وراح، يقول:

- وماله لما أفكر في الدكتوراه، ما هو ممكن ألاقي فكرة الموضوع دلوقتي، لكن وقت ما أبدأ أدور... ممكن ملقاش.

تساءل من باب تحصيل حاصل:

- وأنت عايز إيه دلوقتي؟

تبسم ضاحكًا، وقال:

- أقولك فكرة البحث اللي جاتلي من التمثال ده، معندكش فضول تعرف؟

نهض صالح من جلسته، وقال ساخرًا:

- أنا داخل أنام ... خلي التمثال يسليك.

دقت الساعة الواحدة في منزل صالح تجيبها دقات ساعة راحيل الجالسة بجانب حياة بداخل غرفتها، تستكمل حديثًا قد طال بينهما:

- تعرفي إن الدنيا دي غريبة أوي، كل لما أحس إني فهمتها أكتشف إني لسه في مرحلة المهد، دنيا غريبة، وربما يكون احنا الغرباء، ضللنا الطريق اللي مفترض نمشي فيه بعد ما بدأنا نطور من حياتنا وأنفسنا، وفي الآخر اكتشفنا إن كل ما نطورها عشان نتفرغ للهدف الأساسي تزيد الأعباء وبتبقى الدنيا هي الغاية بعد ما كانت مجرد وسيلة.

- كلامك عميق أوي الليلة دي.

- مش عمق قد ما دي اللحظة اللي بحب أرجعلها كل فترة، لحظة التجلي والحساب، أنا عارفة إني اتلهيت في الدنيا من شهرة وحب الناس، لكن كل ده ميساويش، حتى عمار الهاشم اللي الناس مُتيمة بكلماته اللي بتلامس القلب، طلع الكلام ده مش منه، هو مجرد قلم بيكتب والناس بتقرأ، وأبطال قصصه سارحين من بلاد الله لأهل الله.

قاطعتها حياة، بقولها:

- استني كده، هو عمار الهاشم مش كاتب وبيسرق مجهود حد تاني؟!

- طبعًا لأ، مين قالك كده؟

- إنتي اللي لسه بتقولي يا راحيل.

- ركزي معايا والنبي. صمتت لحظة، وأردفت في شيءٍ من السعادة:

- مع إن صالح لو سمعني بقول كده هيزعل ويقول حرام يا أستاذة، مع إنه شيء عادي مجرد كلمة عفوية مش بقصد منها حاجة طلعت من أعماق نفسي، وهو مش حيفهمني إذا قلت كده.

قالت في ضيق:

- راحيل، اهدي... إنتي رغاية أوي النهارده ومش فاهمة منك ولا كلمة، وعمالة تدخلي صالح في وسط الكلام من غير لازمة، وضحي إنتي عايزة إيه بإيجاز.

- أنا لو قعدت عمري كامل أتكلم حيبقى كلامي بإيجاز برضه يا حياة، أنا شوفت في أسوان عجائب متوقعتش إني أشوفها، لقيت القدر بيرتب الرحلة من أول ما ركبت القطر لحد ما رجعت هنا تاني وكأني بشاهد فيلم، حتى من قبل كده، من اليوم اللي قرر فارس يكتبلي قصته.

قالت وبين شفتيها ابتسامة متكسرة:

- والله أنا النهارده مش رايقة خالص ليكي، حاولي تقولي بهدوء وترتبي كلامك، وفهميني موضوع عمار لأنك شككتيني فيه... ثم سكتت عن الكلام وأمسكت بيدِ راحيل، وتساءلت عجبًا:

- فين التميمة؟

أشارت إلى مكتبها الصغير، وهي تقول:

- أهي هناك؟

- ومش في إيدك ليه؟ ده أنا تعبت لحد لما جبتها وفي الآخر ترميها.

- أنا هفهمك، أصل صالح طلب واحدة زيها، فأنا سبتهاله، لكنها وقعت منه قدام بيت فارس، فأنا خدتها ومستنية أديهاله.

- ذهلت ورفعت حاجبيها، متسائلة في دهشة:

- مين؟ احكي من الأول.

بدأت راحيل تسرد لها ما حدث منذ أن وصلتها رسالة فارس ليُعلمها بأن هناك سرًا خفيًا حول شخص الجيوشي، ذلك السر الذي بدأ يتجلى يوم أن قرأت رسالة عجوز يخبرها فيها بأن للكون أسرارًا هائمة، مفصحًا عن الجانب الخفي في حياته وما يليه من الالتقاء بصالح ومن بعده عمار، فاتضح لها أن ما رأت،

وقرأت، وسمعت منذ سفرها إلى أسوان ما هو إلا مراحل في حياة ذلك العجوز الذي دنى من نار القرب فأدهشه الجلال قبل الجمال، ليتضح أن عمار واحد من الذين اكتفى الجيوشي برؤية السعادة في عينهم حينما أمده بالأمل، ولا تدري حتى يومها هذا ما أراده الجيوشي منها بعد أن رفض فارس رؤيتها له، فليس بيد الجيوشي أن يسطر القدر بل هو واحد من جند الرحمن، ينتظر أوامره جل علاه .

ولم تمض بضع دقائق حتى تركت حياة صديقتها راحيل متجهة نحو شقتها، كانت أفكارها مختلطة مشوشة، أكان من الأجدى لها أن تنصت لقول مهدي حتى النهاية، أحست للمرة الأولى في حياتها بأنها حمقاء.... مندفعة، وأن أملها قد ضاع وأضحت تهواه بلا أمل، فالذكريات القليلة معه تطرق عقلها من آنٍ لآخر، لكنها الآن أو مثلما أحبت قوله (هسه) أبصرت في حديث راحيل بوابة من النور، وأيقنت أنها ستراه مجدداً، فالقدر الذي ربط بين أحلامها وواقعها بتلك الطريقة الروائية عليه أن يكمل ما كتب.

في الصباح مرت سعاد بحركاتها الرشيقة من أمام غرفة راحيل متجهة نحو (التليفون)، رفعت سماعته ببطء، وهي تقول في رقة معهودة:

- آلو.

- السلام عليكم.

- وعليك.

ظل صالح صامتًا يجهل القول بعدما حسب أن المجيب لا بد أن يكون راحيل ....أعاد الحديث، قائلًا:

- ممكن أكلم أستاذة راحيل؟

كانت راحيل في ذلك الوقت تقف بالقرب من سعاد تستفسر عن الطارق بالإشارة والهمهمة، حتى تساءلت سعاد هي الأخرى بالقول:

- طبعًا... بس أقولها مين؟

- صالح، الشيخ صالح.

أمسكت راحيل بالسماعة مترقبة سماع الأمر الذي دفع صالح إلى التحدث معها في ذلك الصباح الباكر، في حين كانت أذن سعاد فوق أذنها بجانب السماعة، أجابت ببرود:

- أهلًا يا شيخ.

- أهلًا يا أستاذة... حمد الله على السلامة... أظن إنك النهارده فاضية.

- الله يسلمك، آه فاضية... خير؟

أجاب، متسائلًا:

- قلقانة ليه كده؟

- لأ خالص، بس كنت عايزة أفهم.

انتهت المكالمة بينهما على وعد بأن تتجه راحيل نحو الجريدة التي كانت تعمل بها عند ظهر ذلك اليوم، سعدت لذلك اللقاء لأنها التمست من حديث صالح معها أن بإمكانه أن يُعيدها لعملها مرة أخرى، دائمًا ما كانت ترفض مساعدته، لكنها في تلك اللحظة أحبت مساعدته لها بعد أن بدأ يتلاشى ما بينهما من خلاف.

في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا خرجت راحيل من غرفتها على استعداد للذهاب، فقالت لها سعاد:

- طب متتأخريش علشان النهارده جي.

في محاولة استفسار من راحيل:

- الساعة كام؟

- سبعة إن شاء الله.

- طب كويس هبقى هنا قبلها .

في أثناء انصراف راحيل نحو الباب، قالت الفتاة ذات الوجه الصبوح، والملامح الهادئة:

- احنا عايزينك بدري، عشان تلحقي تعملي الحلويات مع ماما.

- حبيبي الساعة لسه حداشر، حكون هنا على تلاتة، تكونوا خلصتوا تنضيف.

ضحكت سعاد ، وهي تقول:

على فكرة احنا خلصنا من امبارح، مش واخده بالك... سلامة نظرك...ويا ريت متتأخريش.

رددت وهي تغلق الباب:

- حاضر حاضر.

هبطت راحيل الدرج في هدوء بعد أن أعياها ألم الرأس، فلم يفارقها ذلك الألم في المدة الأخيرة، وصلت إلى الشارع الرئيس وأخذت تتخطى الطرقات الواسعة النظيفة المشعة ضوء في ذلك الوقت من اليوم، حتى وصلت إلى محطة الأوتوبيس.

حينها كانت سعاد تتحدث مع زميلها المعيد في كلية الآداب قسم التاريخ الإسلامي في حين كانت هي معيدة في قسم التاريخ اليوناني جامعة القاهرة، منذ فترة قصيرة تقدم ذلك الشاب بطلب مقابلة أمها بهدف الخطبة، وكان ذلك قبل سفر راحيل، لكنه لم يستطع بعد أن انشغل هو الآخر بالسفر إلى دير سانت كاترين لرؤية وثيقة سميت بالوثيقة المحمدية، وعلى أي حال فسيأتي هو اليوم لزيارتهم لتجديد طلبه أمام نجلاء.

انتهت سعاد من الحديث معه واتجهت تتطاير نحو المطبخ كي تساعد أمها في تحضير الطعام، تلك السيدة التي رسم الزمن علامات الحزن على وجهها، فقد رحل المقربون عنها منذ

سنوات، لكنها لم تكن تدرك في تلك اللحظة أنها في استعداد لفقدٍ جديد سينهي ما تبقى لها من سعادة مؤقتة، تلك التي كانت تتلاشى كلما عادت بفكرها للماضي الأليم، ثم تخلق من جديد حينما ترى ابتسامة راحيل، وفي تلك الأثناء وصلت راحيل إلى الجريدة والتقت مع صالح.

جلست بالخلف من مكتبها، وهي تقول مازحة:

- ملحقتش ترتاح يا شيخ، رجعتلك بسرعة.

قال برنة ضحك:

- إنتي مشكلة ..مين قالك إنك رجعتي الشغل.

قالت بصوتٍ متقطع:

- هو مش أنت قولتلي تعالي الجرنان؟

- اهدي، وخدي نفسك براحة، بعدين اتكلمي.

- ما هو السلم بتاعكم ده صعب!

- بس إنتي كنتي بتطلعيه دايمًا، إيه اللي جدَّ؟

- السن بقى، الواحد خلاص عجز.

تبسم لقولها تلك البسمة المعتادة وكاد يفصح عن ما في قلبه تلك اللحظة بعد محاولات تردد، فلم يستطع حينما جاءت مريم، ترحب براحيل في سعادة بالغة:

- أخيرًا رجعتي، أنا قلت خلاص ومش هشوفك تاني، واخد التمثال منك.

تساءلت راحيل:

- صحيح هو فين التمثال؟

- مش عارفة، حبقى أسألك عامل النظافة، المهم أسرعي لأن كامل عايزك في المكتب.

اتجهت راحيل نحو مكتب كامل تلتقط أنفاسها المتسارعة، وتحاول أن تخفف من نبضات قلبها، دقت الباب برقة فأذن لها بالدخول، وبعد أن دلفت من الباب وأبصرها، صاح بها:

- الكاتبة الكبيرة رجعت لنا تاني... الجريدة كانت هادية من غيرك.

قالت، وهي تعتزم الجلوس:

- هو مش المفترض إنك تقولي كانت الجريدة وحشة من غيرك... وكلنا كنا زعلانين... مكنش في روح في المكان.

صاح بها ثائرًا:

- راحيل!

قالت:

- نعم.

- إنتي بتقولي إيه؟

أجابت ببساطة:

- السيناريو اللي كان بيدور في عقلي.

- تصدقي بالله.

- لا إله إلا الله.

- صدق صالح لما قال إن طريقتك متوحيش أبدًا بعمق كلمات كتاباتك.

قالت في عجل:

- ما هو لو كل اللي جوانا بيظهر في تعاملنا، كانت الحياة هتبقى صعبة أوي، لازم يبقى في تنوع، مش شرط إني متفوقة في حاجة إني أبقى محبوسة فيها طول العمر، الدنيا عايزة اللي يروح ويجي معاها مش اللي محبوس جوا دايرة أفكاره ومعتقداته. ثم دقت على مكتبه الخشبي، وأكملت:

- يعني أنا مشيت من هنا مطرودة ورجعت تاني ولا كأن حاجة حصلت... كأني كنت في إجازة. وقالت متعجبة:

- مش غريبة برضو؟

أومأ برأسه، قائلًا:

- غريبة، بس لحظة غضب وإنتي ما صدقتي وقولتي بركة يا جامع.

- أيوه... أنا صدقت فيها، بعدين أنا كنت تعبانة وصداع رهيب، والدكتور اقترح إني أروح أستجم في أسوان... غير أمور تانية اتشبكت وحتمت إني أسافر.

- ودلوقتي أخبار الصداع؟

كذبت القول:

- أحسن كتير!

- ياريت تكون الأجازة دي "وخليني أسميها أجازة" أوحت لك بفكرة مقال جديد.

قالت في جد:

- وموضوع شيق جدًا.

- طب ورينا شغلك.

أجابت وعيناها مسبلتان:

- بس مش النهارده.

في نفاد صبر:

- ليه؟ احنا لحقنا.

- واللّه مشغولة النهارده... النهارده بس.

استمرّ الحديث بينهما لبعض الوقت، انسحبت راحيل في نهايته عائدة إلى البيت، ومن الباب الآخر للمكتب تقدم صالح نحو كامل وجلس أمام مكتبه، ثم قال:

- مش عارف أشكرك أزاي إنك وافقت إنها ترجع.

- من غير شكر ولا حاجة، أنا كنت هرجعها أصلًا من غير ما تتوسط.

- طالما كده، ياريت تسمحلي إني أروح النهارده بدري.

- أنت كمان، وعلى العموم، ليه؟

قال وهو يهم المسير:

- لأن هاشم أخويا النهارده حا يخطب.

في ذلك الوقت كانت راحيل تتحرك بالجريدة باحثة عن صالح لتعبر له عن جزيل الشكر بعد أن ساهم في عودتها إلى الجريدة، لكنها لم تجده فاستسلمت للذهاب وغادرت الجريدة عائدة إلى منزلها.

في تمام السادسة والنصف مساءً سمعت راحيل صوت دقات الباب، أسرعت نحوه فإذا بحياة تقف مبتسمة كما اعتادت قبيل سفرها لأسوان، وكأنها تناست ما كان من أمر مهدي، فقالت بلهجة مرحة في همس:

- فين خالتو نجلاء؟

أجابت راحيل أيضًا في همسٍ:

- قاعدة جوا مع مامتك.

- طب قوليلها إن السيد أحمد عبد الله... اللي هو بابا طالع دلوقتي.

- وليه اللهجة الرسمية دي؟

قالت في شيءٍ من السعادة:

- لأنه بابا.

- إنتي رايقة وربنا، ادخلي هما عندك جوا في الصالون بيرغوا زي العادة، ويجيبوا في أخبار الأولين والآخرين.

انتهى هاشم من ارتداء ثيابه، وتوجه ناحية غرفة أخيه صالح، وقال:

- بسرعة يا شيخ هتأخر.

قال صالح وهو يهندم ثيابه وينظر إلى المرآة:

- حبيبي الفرق بينا وبينهم شارعين بس... يعني لو ندهت من هنا حيسمعوك، ثم خبط على كتفه، وأردف:

- تعالى نصلي الأول العشا في الجامع، وبعدين نطلع لهم.

- طب، هو أصلًا البيت خطوتين من المسجد.

أسرع صالح مع أخيه بعد أن استمع إلى صوت الأذان، اصطف مع المصلين بعد أن كان يتقدمهم كثيرًا، فلم يكن مقررًا على صالح اليوم أن يؤم المصلين بل كان من نصيب إمام آخر، بعد أن فرغا من الصلاة توجه هاشم نحو السيارة والتقط منها علب الحلوى التي اشتراها منذ الصباح، وظل محتفظًا بها داخل السيارة في أثناء صلاته، ثم اتجه مع أخيه نحو البيت... توقف صالح عند بابه ومسح على لحيته، وهو يقول:

- هي ساكنة هنا؟

- آه، مستغرب ليه؟

- لا أبدًا، بس فكرني كده هي كان اسمها إيه؟

- سعاد يا شيخ، أنت لحقت تنسى.

كان على يقين أن تلك الفتاة ليست راحيل، فأخوه يعرف راحيل جيدًا من مقالتها ومن حديثه عنها ولم يكن ليراها إلا في ذلك اليوم، وأن الفتاة التي توجه لخطبتها هي زميلة له،

فيا له من أحمق ترك يقين ما عنده لظنٍ ما طرق بوابة خوفه، ارتقى درجات السلم وهو يطلب من اللّه أن يهبه رؤيتها مُصَادَفةً، فلم يتمكن من ذلك حتى وصلا إلى باب شقة سعاد، طرقه صالح طرقات هادئة تشبه نغمة موسيقية، انتظر صالح قليلًا حتى فتح الباب وكان به رجل في أواخر العقد الخامس من عمره طويل القامة ممتلئ قليلًا، قال في وقارٍ وأدب:

- اتفضلوا.

تقدم صالح يليه هاشم بالخلف من الأستاذ أحمد وصولًا إلى الصالون، جلس صالح بالأمام منه وبجانبه هاشم وجرى الحديث بينهما كما يجري في تلك المناسبات، وراحيل تجلس في غرفتها مع سعاد وحياة يتسامرون، حتى تساءلت راحيل بلومٍ:

- يعني أنا لو كنت جيت الحد مكنتش حضرت اليوم ده يا ست سعاد!

قالت سعاد ضاحكة:

- ما هو احنا أصلًا كنا عارفين، فارس اتصل بينا الخميس بليل وقلنا إنك راجعة... فقررنا يبقى السبت.

قالت راحيل في عصبية مصطنعة:

- واللّه... أنتوا كنتوا بتضحكوا عليا.

قفزت حياة من فراش راحيل قاذفة الجريدة من يدها، وهي تهتف براحيل:

- قسمًا برب العزة ما أعرف حاجة!

قالت سعاد:

- لأ تعرفي، يعني أنا أضرب لوحدي، وأكملت مستنكرة:

- وسيبك شوية من الجرنال ده لإننا عارفين إنك مبتحبيش تقري... متعمليش نفسك مثقفة على آخر الزمن.

تمطت حياة، وقالت في برود:

- طالما كده اضربيها يا راحيل، أنا مش محوش عنها.

حاولت راحيل أن تمسك بها، لكنها تخبت بالخلف من مكتبها، وقالت:

- ما هو أصلًا ده الميعاد الوحيد المناسب، كان ممكن يجي الخميس، بس أخوه كان في أسوان.

استقرت راحيل على فراشها، وهي تقول:

- موضوع إنك تعمليه الخميس ده حنفتحله حساب تاني، بس هو مين أخوه؟

قالت ببساطة:

- الشيخ صالح أخو هاشم.

- صالح عبد الوهاب؟

حدقت ببعينيها عجبًا، وهي تقول:

- آه.... عرفتي منين؟

- ما أنا بقول حمارة ومحدش بيصدق... تعالي بس ومتخافيش.

اقتربت نحوها سعاد، وقالت:

- عايزة إيه... وبلاش ضرب.

أمسكتها راحيل من أذنيها، وهي تقول:

- ما هو ربنا لما وزع العقول كنتي إنتي نايمة... أنا عمالة أحكيلك وأقولك صالح عمل، اتخانقت مع صالح النهارده... وإنتي البعيدة مفيش تركيز خالص، وكمان كنتي بتتجسسي على المكالمة الصبح ومخدتيش بالك.

- أممم، هو ده صالح؟

- أمال مين يعني؟

لم تمض بضع دقائق على معرفة راحيل بصلة القرابة بين هاشم وصالح حتى طلب أستاذ أحمد من نجلاء ونادية (أمها لحياة) تجهيز الطعام، فقال:

- جهزوا العشا، وخلوا راحيل وحياة يعملوا قهوة لحد ما تخلصوا.

حدث صالح نفسه، قائلًا:

- راحيل وساكنة في نفس البيت، أكيد هي.

قال هاشم مجيبًا أستاذ أحمد:

- كفاية الحاجة الساقعة.

- استنى بس، راحيل أخت سعاد بتعمل قهوة حلوة.

تساءل صالح حينها في محاولة استفسار:

- هو هاشم قالي إن سعاد ملهاش إخوات.

أجابت نجلاء:

- ما هي راحيل دي بنت أختي اللي يرحمها.

بعدما تناولوا الطعام، جلس صالح يتحدث مع راحيل في الشرفة الداخلية للمنزل، كان يحدثها عن تلك الصدف التي باتت تقرب بينهما في الأيام الأخيرة، فقال:

- سبحان الله، أنا لسه قبل شوية عارف إن سعاد قريبتك، يعني لو كنت عرفت قبلها، مكنتش هبقى متفاجئ.

- بس المفاجآت حلوة برضو، يعني النهارده الصبح تشوفني في المكتب وبليل في زيارة عندنا... الله يكون في عونك...صحيح نسيت أقولك.

متسائلًا:

- خير؟

- أنا لقيت التميمة وجيت أديهالك الصبح وملحقتش... تبقى تاخدها مني بكرة في المكتب لأنها جوا في الأوضة، وأنا مش قادرة أروح ليها.

قال ضاحكًا:

- كسولة...

- سيبك من الكلام ده وقولي... هو هاشم ده أخوك؟

- لأ مأجراه.

- أنت بتهزر..أنا مش قصدي كده، كنت بسأل إذا كان هو أخوك الوحيد.

- أيوه.

ثم بدأ يقص عليها قصته منذ اليوم الذي مات فيه أبوه حتى يوم أن التقى معها في الجريدة، يخبرها عن ترتيب القدر الذي وضعها في طريقه، ففي البداية كانت كلماتها هي أنيسه وبعد عامين أضحى حديثها بمنزلة عالم آخر له، احتفظ ببعض ما كان يدور بعقله ويستقر في قلبه حتى يحين الوقت المناسب ويخبرها بما أراد، ومنذ ذلك اليوم بدأت الأيام تمر فلا جديد، فراحيل مازالت تعمل بالجريدة وصالح يتنقل بين إمامة الصلاة وكتابة المقالات ولقاء راحيل كما اعتاد في الأيام الأخيرة، و بينما كان هاشم يحاول هو وسعاد التفرغ من رسالة الماجستير، كانت حياة منهمكة في عملها تحاول أن تتناسى مهدي بعد أكثر من خمسين يومًا من آخر لقاء لهما في أسوان.

(٩)

في تلك الأثناء كان مهدي منشغلًا بالصراع الذي بات يظهر جليًا على مسرح الأحداث في بغداد بعد سحب فرق التفتيش الدولية من مدينة السلام، في الدقائق الأولى من يوم السادس عشر من كانون الأول حيث يخيم السكون منزله، أخذ يسير فيه ذهابًا وإيابًا صعودًا وهبوطًا حتى نقش أثاثه بذهنه، يسرع نحو النافذة بين الحين والآخر، تجوب عيناه الطرقات باحثًا عن ونيس يملأ الفراغ الذي أصابه، و بينما هو على ذلك الحال استمع إلى أصوات غناء وضحك وتمتمات، أسرع نحو مصدرها ونظر من النافذة سارحًا ببصره للأمام فإذا بمجموعةٍ من الشباب جالسين على بعد أمتار من منزله، حاول أن يتحقق من هويتهم لكن لم يستطع في هذا الظلام الدامس سوى من بصيص نور بالقرب من هؤلاء الشباب، فتأكد بأنه لا مفر من أن يذهب إليهم ويستفسر عن سبب وجودهم في ذلك الوقت... قال وهو يقترب نحوهم:

- أهلًا يا شباب شدسوون؟

أجابوا في أصوات مختلطة:

- أهلًا أستاذ مهدي، وأكمل أحدهم:

- مثل مدشوف، دنجهز جنط رمضان، كل سنة وأنت سالم، رمضان السبت الجاي.

- جزاكم الله خير، ممكن أساعدكم.

قالوا مرحبين:

- ولو اتفضل.

قال أحدهم بصوتٍ عالٍ:

- أبو جاسم، أنطيني كرسي.

قربت الساعة على الثانية عشرة والنصف في منزل مهدي، حينما بدأ الشباب يدلفون إلى داخله بعد قبولهم دعوة مهدي إليه، قدم إليهم بعض الحلوى والمشروبات الساخنة كي تقيهم برودة الطقس... جلسوا يتبادلون أحاديث السياسة، حتى انتبه مهدي إلى ساعة الحائط وقد تحركت ساعتها إلى الواحدة والنصف، فقال مبتسمًا:

- والله جلستكم يا شباب مينمل منها، محسيت بالوقت، جانت الساعة اثنعش وصارت بلحظة وحدة ونص، والله ما أدري...

اقتطع حديثه أصوات تفجيرات صاخبة هزت أركان البيت من شدتها، فلا أحد يدري مصدر الصوت، ولم يكن هناك سوى تفسير واحد، ذاك الذي نطق به أبو جاسم، حينما قال مسرعًا:

- أشنو هاد؟! يوم القيامة هذا؟!

أسرع مهدي نحو النافذة، وفي أثناء اقترابه منها استمع لصوت التفجير الثاني، فما كان منه إلا أن انخفض بجسده نحو الأرض في حركة لا إرادية، وتخبأ الشباب حذرين بالخلف من

المقاعد، وعندما بلغ مهدي الشرفة وقع الانفجار الثالث على مقربة منها.

لم يبصر مهدي بعد هذه اللحظة سوى الظلام، ولم يستمع إلا لصوت دقات قلبه المتسارعة، حتى رأى شعاعًا من النور واستمع لصوت أبو جاسم، يصيح بمن حوله:

- انقلوه لمستشفى اليرموك، حالته كلش خطره، اللّه يستر وميكون صارله شي.

ولم يستمع بعدها لشيءٍ، سكنت روحه لمدة قصُرت أم طالت، فالجميع من حوله مهرولون، منهم من يخبر أهله بما حل به، وآخرون باحثون عن متبرعين بالدم له ولغيره من الضحايا، وهو في حالته هذه ساكن الجسد، أكان مستمعًا الأصوات من حوله ودبيب أقدام الأطباء الذين تلاحقوا نحو غرفته بين الحين والآخر أم لا؟ فمن غير الممكن أن نضيفه في قائمة الأموات لأن أنفاسه مازالت متلاحقة، ولا حتى من الأحياء فحالته لم تكن مستقرة بعد، فهو في ذلك العالم الخفي، في غيب اللّه حيث لا لأحد من الأحياء العلم به، ولا يقين لدينا إن كان للأموات معرفة به أم لا، احتفظ اللّه بالغيب له وحده والقلة هم الذين اطلعوا عليه، لكنهم لم يطلعوا سوى على الغيب المقيد وكان الغيب المطلق للواحد الباطن.

بعد مدة من الزمن، اجتمع ثلاثة أطباء متحدثين من حول ذلك الجسد الساكن في هذا المستشفى الذي بات مستقبلًا بين الحين والآخر لأعداد كبيرة من مصابين ذلك الحادث، وآخرون قد توفاهم الله، وحان الوقت كي يتعرف عليهم ذووهم، قال أحد الأطباء محدثًا زملائه:

- حالته كلش خطره، لازم يسافر يتعالج بمكان ثاني حتى يستقر.

- وين يعني؟

قال ثالثهم:

- راح ننقله لمصر يتعالج هناك مثل ما الشيخ كال، لأن إله جذور بمصر، وهم الحكومة المصرية دزتلنه مساعدات بهاليومين، وما رح يمنعوا يتعالج هناك خاصةً الست نرجس والدته مصرية الله يرحمها.

قال أحدهم، وهو يوجه نظره نحو الجسد الساكن:

- تدرون؟ هذا هو الجنين اللي هربت بي الست نرجس ليلة تشرين للفلوجة وولدته، خاف أبوه يصيرله شي، وقدر ربنا ينولد بعيد عن أبوه، لكن هاي إرادة الله، ومرت السنين وقدر ربنا ينصاب بهذا الهجوم، الله لا يسامحهم وينطيه العمر.

ردد ثلاثتهم:

- الله يرحمهم.

وعندما انصرفوا عنه، التفت إليهما واحد منهم، وهو يقول:

- ديكولون القصف راح ينتهي الليلة.

أجاب أحدهم ساخرًا:

- ليش يعني؟! علمود شهر رمضان، مو رادوا ينكدون علينا بي، إلا لو منتضرين شي ثاني يزيد الطين بله، أكثر من أربع عشر شهيد عدنا واحنه وحدنا... ماكو أسوء من هالشي.

قال آخر:

- خافوا من أسلحة الدمار الشامل لدمار العالم، فدمرونا احنا قبل أي شي.

- وهو احنا لو عدنا أسلحة دمار، جان صرنه بهالحالة.

ففي ساعة لا ننتبه إليها، نستيقظ على صوت صراخ النفس التي أضناها الحزن والألم، نتساءل لِمَ نحن دون غيرنا، فما يقيننا بأن الآخرين من حولنا لا يعانون من أهوال الدنيا، لكن الجميع يحمل أحزانه بين طياته ويسير في طريقه المقدر له قبل أن يُخلق، في لحظات العسر نتوقف عن الحياة ونظن أن كل ما حولنا يتشح السواد يشاركنا الأحزان، وعند التدقيق يتبين أن الكون يسير وفق خطواته التي وضعها المولى وتركها تعمل وفق قوانينه الإلهية قبل أن يُخلق الإنسان، وأن ما حولنا من إنسان، وحيوان حتى الجماد، لا يتأثرون بما نحن فيه، فلا يصح لومي لمن حولي الآن، إنني كنت مثلهم أسير في الحياة أتخطف ما أجده أمامي دون أن أشعر بما يمر به غيري، أما

الآن بعدما أصابني المرض لا يتبقى لي سوى الباقي، فأمد يدي نحوه و أتضرع بالقول الذي كثيرًا ما أحببت سماعه بصوت الشيخ النقشبندي، وأقول:

- مد اليدين إليك أفضل شرعةٍ، ولغيرك وجهك لا يصح سؤالي، أنا عند ظني فيك أنك مكرمي، مع ذلتي ولجاجتي وجدالي.

كتبت راحيل تلك الكلمات في دفترها الجديد بغلافه الأبيض اللون، بعد ما تعهدت بأن تسجل فيه مشاعرها، منذ ذلك اليوم الذي صرح لها الطبيب بأن المرض الخبيث أضحى يجري في جسدها مجرى الدم، والأمل الوحيد يكمن في شجاعتها وأملها في الشفاء، أخبرها بأن الأمل له التأثير الأكبر في الشفاء أكثر من الدواء، فتذكرت ما أخبرت به صالح حينما كانت بأسوان، عندما ظنت أن قوتها بيدها، لكن الآن علمت أن الكلام ما أبسطه ثم يبدأ في التعقيد عند مواجهة الحقيقة.

قد قرب العام على الانتهاء ولا يتبقى سوى أيام قليلة لاستقبال عام جديد هو الأخير في القرن بل في الألفية بأكملها، ففي الساعة الثالثة من عصر يوم الخامس والعشرين

من شهر ديسمبر، رن جرس التليفون في بيت فارس، أقبلت عليه هناء في خطوات متثاقلة وأجابت السائل، فكانت راحيل:

- عاملة إيه يا راحيل؟

بصوتٍ ضعيف:

- الحمد لله، كل سنة وإنتي طيبة ورمضان الجاي يكون يحيى بينا.

- إن شاء الله يا راحيل، ادعيلي لأنه مغلبني أوي.

- إن شاء الله خير، ثم تساءلت:

- عمي موجود؟

- آه، خليكي معايا لحظة.

توجه فارس نحو التليفون والتقط السماعة وبجانبه تقف هناء التي سعت في تفسير علامات الحزن التي بدت على وجهه، وبعد انتهاء المكالمة، تساءلت:

- خير، راحيل مالها؟

تهاوى فارس عند أقرب مقعد وبدأ يسرد المكالمة التي دارت بينه وبين راحيل، فقال في تألم واضح:

- راحيل تعبانة.

- خير عندها إيه؟

- المرض الخبيث اللي لو اتمكن من الواحد مايسبهوش إلا بالموت.

اتضح عليها التأثر، وهي تقول:

- وليه التشاؤم ده، إن شاء الله ربنا ينجيها.

قال بصوتٍ حزين:

- صدق الجيوشي في اللي قاله.

- قالك إيه؟

سكت عن الكلام وتركها متوجهًا إلى بيت الجيوشي كي يخبره بصدق قوله، ولم تمض بضع ساعات من رحيله عن البيت حتى عاد إليه، وأخذ يردد بصوتٍ منخفض، كأنه يحدث نفسه وهو مستقر بالقرب من بابه:

- أنا مش فاهم حاجة، طب طالما مش ده المقصود من كلامه، يبقى إيه اللي مقصود، قالي حد هيموت وحد حيتولد، يحيى حيتولد وراحيل.... لأ لأ... أكيد تخاريف وهو كدبها دلوقتي..

- بتكلم نفسك يا فارس؟

قال وهو يغلق باب البيت:

- لأ أبدًا..

- أنا عارفة إن الموضوع صعب عليك، فما بالك بحال نجلاء، ربنا يصبرها.

التفت إليها، وقال:

- نجلاء متعرفش، ومش حتعرف.

وقفت نجلاء بجانب راحيل وهي ترتب ملابسها في الحقيبة، وقالت بحدة:

- إنتي مش عايزة تسمعي الكلام ليه؟ قولتلك كملي معانا رمضان وبعدين سافري؟

أجابت راحيل بصوتٍ ضعيف:

- عمي تعبان أوي ولازم أرحله.

ثم سقطت دموعها، فاحتضنتها نجلاء، وهي تقول:

- مالك يا راحيل؟ كل ده علشان فارس تعبان، أنا عارفة إنك بتحبيه لإنه الباقي ليكي من عيلة صادق الله يرحمه... متخافيش مش همنعك إنك تروحي، وأكملت بصوتٍ حنون:

- كان صعبان عليا بس إنك متكمليش معانا رمضان، بس طالما ده حايريحك، خلاص روحي.

أسرعت راحيل وهي تحمل حقيبتها بعد أن تيقنت بأن النور في روحها والأمل يجري مجرى دمائها والأيام تمر حلوها بمرها ...وفي الآخر نقف عند أعتاب العام الجديد، يحتفل به البعض كلٌ بحسب طريقته، وآخرون سائرون في ملكوت الله، شغلتهم أحزانهم عن تلك الساذجات، تاركون الأيام تمر وهم مسلوبو الإرادة بعدما أصبحوا أسرى الخوف من الأيام.

- الاحتفالات النهارده في كل مكان، وأنت فين من كل ده؟

قالها هاشم، ثم بدأ يتحرك ذهابًا وإيابًا أمام صالح مطرق العين التي تختلس النظر إلى ذلك التمثال الصغير ذي القبعة الطويلة البنية اللون، واليد الصغيرة الممتدة لأعلى كأنها تجذب الخير من السماء ثم تعود لتنشره في الأرض باليد المَبسُوطة، أكمل هاشم، قائلًا:

- وأنت قاعد هنا، أما في المسجد أو الجريدة أو الجامعة..

ثم أشار إلى التمثال، وأكمل:

- أو قدام التمثال ده.

أعاد صالح رأسه للوراء، وتساءل في جمود:

- نعم يا هاشم، عايز إيه؟!

- نعم يا هاشم! أنا بتكلم من الصبح معاك وأنت في وادي تاني.

- المهم يعني، عايز إيه؟... واحتفالات إيه اللي في كل مكان واحنا في رمضان.

- وإيه اللي يمنع ... أنا حروح أتسحر مع صحابي وكده احتفلت.

ضحك ضحكة صفراء، وقال:

- وبعدين، عايز إيه؟

- مش عايز حاجة، بطمن عليك بس.

- شوف أنت رايح فين، ومتخافش.

قال هاشم وهو يعتزم إغلاق الباب من خلفه:

- أتمنى إني لما أرجع ألاقيك بعيد عن التمثال ده.

بعدما ذهب هاشم، انسحب صالح إلى فراشه، وهو يردد بصوتٍ حنون:

"مالي جُفيت وكنت لا أجفى، وعلامات الهجران لا تخفى" حقًّا لا تخفى، فمنذ غيابها وهو على ذلك الحال، دائم التفكير في حالها وإلى أين ذهبت، يكتفي باستراق النظر إلى تمثالها الصغير، فكلما نظر إليه تذكرها هي وصوتها وبسمتها، فلقد تعلق قلبه بها بعد أن كان أول كافر بالبسمة التي تأسر القلوب والكلمة التي تشغل العقول، أما اليوم فهو حائر مضطرب بعد أن مزقت أحشاءه نظرتها.

ذهب في سُباتٍ عميق، أيقظه منه صوتها، القائل:

- استيقظ حتى لا يفوتك النداء وأنت الذي تعودته، فإن كنت هجرتك فلا تهجر الله.

نهض مسرعًا غير متعجب، فلقد تعود ذلك الصوت وتلك الرؤية منذ أن اختفت، توهم أن التميمة الموضوعة بيده ستكون حصنًا له تقيه رؤيتها، وقد تحقق ذلك لمدةٍ من الوقت ظن فيه أنه بدأ يُشفى من راحيل، وسوف ينفض عن نفسه عهده مع فارس، لكن الشفاء منها أصبح الأمر المستحيل، لقد تأكد بأنها تملكت قلبه وعقله، سيطرت على حواسه وتفكيره، فغيرت من شعوره، تحول من شخصٍ جامد المشاعر بارد الحس لا يغضب ولا يثور، ولا يستطع أحد أن يفسر حاله الذي هو عليه، إلى صالح جديد أسرع يشق سكون الليل بنداء

الله، وبعد أن فرغ منه أخذ يتوسل الله ويرجو منه أن يراها، كان يشعر بأن غيابها لسببٍ آخر غير الذي ذكرته، ود أن يراها ليس للحب المتدفق منه نحوها، لكن لأن روحه تشتاقها، وتشتاق لصوتها وكلماتها التي تنفذ بداخله كي تنير عتمة الروح بالنور، نور غير مرئي ولكنه محسوس، تبتهج له الروح، ويبتسم له القلب، ويرضخ له العقل، لأن حديثها كان من العقل والقلب، نزع التميمة من يده وألقى بها بعيداً عنه، وأخذ يقول:

- كان عقلي فين لما افتكرت إن التميمة دي ممكن تمنع الأحلام؟! حتمنعها إزاي وهي جوا عقلي؟!

قالت راحيل بتأثر شديد:

- دايمًا بفتكر الرسالة اللي كتبهالي الجيوشي، في آخر كام سطر من الرسالة قال كلمات غريبة أوياتعلقت في ذهني من كتر ما قرأتها، حقيقي حيرتني.

تساءلت حياة، متعجبة:

- معقول كلمات درويش زي ده تحيرك كل الحيرة دي؟

- إنتي عارفة هو قال إيه ..ولم تنتظر راحيل إجابة حياة، فكررت قول الجيوشي:

- فهذه هي الحياة، نتحرك فيها كيفما شئنا ونسعد لذلك الاختيار، ولكن الحياة هي من تسوقنا إلى حيثما أرادت، وأنتِ واحدة من هؤلاء ولا علم لكِ بما سوف يحدث.

- كلام طبيعي وعادي، حتى مفهوش أي سجع أو براعة في السرد تخليكي حيرانة كده.

قالت بحكمة:

- المشكلة يا حياة إننا بننجذب للحاجة اللي تبهرنا من أول لحظة، لكن لو اتعمقنا فيها مش حنلاقي غير الخراب، أما الجانب الخفي في الشيء بيبقى بعيد عننا كأن المظهر دال عليه، وده اللي عجبك في مهدي... الكاريزما، أسلوب الكلام، الشكل المهندم، الشنب المهندم ...يعني الشكل بس؟

قالت بصراحتها:

- صحيح ممكن أكون اتشديت له في البداية علشان كده، لكن بعدين لما اتعاملت معاه اكتشفت أن الروح أجمل من كل ده، بسبب ثقافته العالية، ومفيش تكلف في التعامل معاه، هزت كتفيها في يأس، وأردفت:

- بس نقول إيه النصيب!

- النصيب اللي هو القدر، هو ده اللي استنتجته من كلام الجيوشي، ممكن نصيبك يكون السبب في تغيير مجرى حياتك، في حاجات كتير بنتمناها في الدنيا، وبعدين بيتضح لنا إنها سبب هلاكنا، معرفش لو كان نصيبك من الدنيا هو مهدي كان إيه حصلك، احمدي ربنا لأن في حكمة إنتي متعرفهياش من ورا اللي حصل، يعني لو كان مش

متجوز وفي أسوان طلب الجواز منك أكيد كان زمانك دلوقتي لقيتي نفس مصيره أو موتي.

- تصدقي إنتي صح صحبتي، وكلامك عاقل وحقيقي، بس بتغفلي أحيانًا عن حاجات بديهية أي حد ممكن يكتشفها، ثم أردفت في ثقة:

- ما هو ممكن لو كنت سافرت معاه وده في حد ذاته متغير عن الواقع اللي حصل دلوقتي، فإيه اللي يأكد لك إن مفيش حاجة تانية تتغير، ومكنتش بغداد اضربت.

قالت ضاحكة:

- مخدتش بالي، بس نقول إيه بقى، علمناهم الشحاتة...

ضحكت حياة لقولها هذا، ثم قالت، وهي تخبط بكفها على جبهتها، وتمد يدها لراحيل برسالة سحبتها من حقيبتها:

- نسيت، خدي ده جواب من صالح، لما عرف إني حازور أسوان قالي أدهولك، ثم تساءلت:

- هو إنتي ليه مش عايزة تقولي لنجلاء؟ دي لسه فاكرة إنك عند فارس.

تجاهلت راحيل قولها، متسائلة:

- وإنتي حقيقي مسافرة؟

- آه معايا فوج سياحي رايح أبو سمبل علشان يحضر التعامد.

- هو عدى كام شهر؟

- كتير، وعلى العموم مش هتأخر عليكي، هو أسبوع بس.

بعد دقائق ذهبت حياة وجلست راحيل في غرفتها ممسكة بتلك الرسالة تتردد في قراءتها، حتى تشجعت وقرأت ما قد كان فيها من قول صالح:

راحيل:

كم تمنيت أن ألتقي معكِ منذ سنوات وأقص عليكِ ألمي، وأخبرك عن ما أكنُّه بداخلي نحوك من امتنان قبل أن أصرح بحبي، أخبرك بأن كلماتك كانت تمدني بالقوة والصبر والإيمان أيام عانيت فيها من المرض، والفقد، والضعف، ولم يكن لإيماني وتوحيدي ليكتمل ويقوى إلا بكلماتك التي تعودت قراءتها كل يوم بالجريدة، كنت أشعر أن تلك المقالات ما هي إلا رسالة تمدني بالأمل والحياة، حتى قرأت إحدى المقالات وتركت الجريدة على المنضدة الموضوعة بجانب أمي الجالسة على مقعدها، شاحبة الوجه، ضعيفة الجسد، ولا تملك سوى بسمتها التي توجهها لي، كي تشعرني بأنها في حالة جيدة، لكن في تلك اللحظة بهتت الابتسامة و تجمدت أطرافها وهتفت باسمي بصوتٍ مبحوح، بُهتُّ ووجمت وارتعش جسدي خوفًا، وقلتُ بصوتٍ حزين:

- أمي نعم.

أمسكتُ يدها محاولاً أن أقبلها، لكني شعرت بها تنسحب من يدي، انقطعت أنفاسها ومضت هي إلى مقامها ومستقرها إلى أن

يشاء اللّه، ومضيت لطيم الأب والأم، كرهت حديثك وكلماتك لأنها باتت تذكرني بذلك اليوم المشؤوم، وعندما رأيتك بعد رحيلها عادت لذهني صورتها، لا لمقالتك التي كنت أقرأها في أثناء مرضها، لكن لملامح الوجه التي تشابهت معكِ كثيرًا، حتى كدت أجزم بأنها بُعثت من جديد في صورة شابة ممتلئة بالحيوية والمرح، حاولت مرارًا أن أكف عن رؤيتك في منامي لكن الأمر خارج عن إرادتي متروكًا لقلبي وعقلي، ولم يكن هناك سبيل للتخلص منكِ سوي بقتل تلك المشاعر، أخذت منكِ التميمة ظنًا مني أنها وسيلة التخلص من رؤيتك، لكن كلما نظرت إليها تذكرت أنها منكِ، فكثيرًا ما كذبت ما أشعر به نحوك وحسبت أن الأيام قادرة على محوه، لكن ذلك الرباط أقوى من الأيام، شعرت بحنين شديد يشدني إليكِ، فوجدك كياني وكينونتي، ذلك الذي لم يقوَ إلا حينما ابتعدتِ، فظل قلبي حائرًا هائمًا لا يعلم مستقرًّا، ولم تجدِ تلك التميمة الملتفة حول يدي بل شعرت بأنها ملفوفة حول عنقي، ذلك حينما عادت لي رؤيتك في نومي بل لم يكن طيفك مفارقًا لي، بحثت عنكِ في كل مكان ولم أجدك سوى في أعماق نفسي، فكيف لي أن أصل إلى تلك الحالة من الهيام والشوق؟ أنا الذي تعود الجفاء، لكن ثمة شيء تغيرت بداخلي عندما أصبحت أسير كلماتك.

طوت راحيل الرسالة، وسجلت في دفترها:

- إني أكتب لنفسي بعد أن شعرت بأن هناك حنين شديد يشدني نحو الكتابة، أكتب رسالتي لصالح وأنا على علم بأنها لن تصله، فإذا ما نجاني الله أستطيع أن أخبره بما في قلبي، وأن كان الأمر غير ذلك فسيموت معي دفتري الأبيض عسى أن يكون كتابي عند الله كذلك، محى المرض فيه أي وزرٍ قد اقترفته، فلا أقوى على إرسالها إليه لأنها ستعيد الحزن إليه بعد أن هجره، فإنني جد منهارة...جد منهكة، كيف أصرح له بأن الروح التي يكتب إليها الآن مهددة بأن تزول في وقتٍ قريب، تمكن المرض من ثوبها وهي لا تدري، ستعود وحيداً جريحًا لكنك تلك المرة لن تجد من يملأ قلبك بالسكينة والهدوء، فكلماتي لن تعد تنشر لأن الروح التي تكتب وتبوح ستبرح هذه الحياة قريبًا، آسفة لك، فإن كان بيدي الأمر لتمنيت أن أبقى معك إلى أن تقوم الساعة، ولكن أمنيتي تلك ستحطم مع أهوال ذلك اليوم العظيم وأفر منك خائفة، مترقبة مصيري، فلا مستقر في تلك الحياة والفراق هو البطل الذي ينتصر حتمًا في معارك الحياة، فصدق من قال إن لأسمائنا نصيبًا من حياتنا، وكان الرحيل هو المكتوب.

في ذلك الوقت كانت حياة تسير في طرقات المستشفى تتجه نحو بوابته، وقبل أن تبلغها فاجأ أذنيها صوت محبب إليها،

فالتفتت إليه تتأكد من صدق حدسها، وكان هو، يقف مهدي مبتسمًا وهو يخبرها عن صدق يقينه برؤيتها مجددًا، تعجبت من تلك الصدفة واكتفت بأن ترد الابتسامة بأخرى، أرغمته بسمتها تشبيهها بنسمات الصيف، اتجهت معه نحو(الكافيتريا) ودار بينهما الحوار عندما تساءلت عن زوجته، ولمِ لا تراها بجانبه، أجاب:

- مدا افتهم إنتي شدتحجين؟

فسرت قولها:

- أم نوار.

- نوار منو؟

أجابت ببساطة:

- بنتك.

- شلون يعني؟ نوار اللي تحجين عنها مواليد سبعين، أني الله لحد الآن مقاسملي الله أتزوج... لحظة بس أني لهدرجة مبين أني جبير بالعمر؟

- لأ أبدًا، أنا ظنيت إنها عندها حداشر، اتناشر.

قال في لهجته السريعة:

- حبي، إنتي مدورتي عن تاريخ ردة تشرين؟

هزت رأسها، وهي تقول:

- حقيقة... لأ، بس الأهم نوار تبقى مين؟

- أختي، أمي ماتت يوم ولادتها.

- آسفة فكرتك.

- لا أبدًا، منقهرت.

- طب احكيلي على اللي حصل وجابك هنا!

رفع حاجبيه عجبًا، وقال:

- أشلون ما تعرفين؟ العالم كله عرف اللي صار بيوميع.

- أيوه أكيد عرفت، بس عايزة أعرف منك كنت فين؟ حسيت إيه وقتها؟

أعاد ظهره للوراء مستندًا إلى المقعد وسرح ببصره يسترجع ما حل به هذا اليوم، وقال برنة حزن:

- جنت كاعد بليل، سمعت صوت ناس كثار ديحجون، جانوا الشباب بالشارع العام، طلعت وياهم لكيتهم يجهزون مادري شيسموها الرمضانية، كعدت وياهم ووره شوية دخلنه البيت عندي، جنت أحجي وياهم وكعدنا نتعشى، واشو فد غاره جتي وصوت "زززززز" الكهرباء انطفت، والسكف وكع، والجام تمسر، وموعيت ع شي، سمعت واحد ديكول انقلوا لمستشفى اليرموك، مر وقت طويل ماكدر أتذكر شصار وكتها وبغفلتي ...بغيبوبتي...مادري شيسموها، شفتج دتكوليلي:

- حيرتني، مش عارفة إذا كان السر في النفس ولا في النيل ...أديك رجعت تاني لمصر من غير إردك، المهم إنك رجعت... حمد الله على السلامة...

- صحيت من الغيبوبة ودأسال أني وين، كالولي إن حالتك جانت خطيرة واضطروا ينقلوك لمصر حتى تتعالج، وكتها تذكرتج وتمنيت الله يشفيني حتى أشوفج.

جلست أمامه صامتة لكن روحها تصرخ من فرط السعادة، فهذا الذي تمنته يتحقق، علمت أن الأمر لم يكن مجرد إعجاب ثم لقاء ولكن ما هو أكبر من ذلك، كان ترتيب القدر لأيامٍ قادمة، وحده الله يعلم ما سيحدث بها، لكنها تتوقع الخير والسعادة، فمثلما قال الإمام:

- كل متوقع آتٍ.

ثم تساءلت:

- هو أنا ممكن أستشيرك في حاجة كده؟

- زين ...اتفضلي.

(١٠)

سبحانه العليم، من أحاط بكل شيءٍ علمه، فله العلم بما هو كائن وبما سيكون، خلق حواء لتؤنس آدم في جنته بعد أن أحاط بعلمه استحالة أن يبقى الإنسان وحيداً على رغم إرادته، أليس الله بقادرٍ على أن ينزع ذلك الشعور من الإنسان حتى يصبح قادرًا على أن يحيا دون غيره، دون أدنى شك قادر سبحانه، لكنه عودنا الألفة والاجتماع لحكمة لا يعلمها إلا هو، فالإنسان تعود كره العزلة لأن الله هو من وضع ذلك المقدار في قلبه، هذا ما كان يشغل راحيل الواقفة بشرفة غرفتها بالمستشفى قبل أن يقطع تفكيرها صوت دقات الباب، سمحت لذلك الطارق بالدخول بعد أن ارتدت حجابها ظنًا منها أن بالباب الطبيب المشرف على حالتها أو مساعدة الطبيب كما تعودت خلال الأشهر الماضية.

- راحيل؟!

هتف باسمها صوت كثيرًا ما تعودته منذ الطفولة، فالتفتت نحو مصدره فإذ بسعاد تقف ثابتة لا تحرك ساكنًا، وبالقرب من الباب يستقر صالح وبجانبه الطبيب... بعد لحظات تركهم الطبيب وظل ثلاثتهم بداخل الغرفة، تساءلت سعاد، بصوتٍ مبحوح تقتطعه الدموع المنهمرة:

- إنتي كويسة، صح؟

- زي ما إنتي شايفة.

حاولت أن تتمالك الرعشة التي أصابتها عندما رأت راحيل بتلك الحالة من الضعف والشحوب، وقالت بوجل:

- شيفاكي راحيل أختي، وبنت خالتي، وصحبتي.

جذبتها راحيل من يديها، وهي تقول:

- اقعدي بس بدل الوقفة دي.

ثم طلبت من صالح الجلوس وهي تتحاشى النظر إليه حتى لا يرى ما حل بها من ضعفٍ، فقالت:

- اتفضل يا صالح.

جلست هي على المقعد المجاور لسعاد، وتساءلت، وهي تشد على يدها بعد أن انصرف الطبيب:

- مين قالكم... فارس صح؟

أجابت سعاد بنبرة هادئة:

- لأ والله، هي حياة اللي قالت، وخالتك مستحلفة ليها لما تشوفها!

- مش فاهمة هي نجلاء فين؟ وإزاي عرفتوا من حياة، ونجلاء مشفتهاش؟

قالت سعاد:

- بصي يا ستي هي قالت لصالح، وصالح قلنا.

وجهت راحيل سؤالها لصالح، فقالت:

- هي اللي قالتلك؟

هز رأسه مؤكداً قول سعاد، فحدثت راحيل نفسها بصوتٍ مسموعٍ، قائلةً:

- ليلتها سودة بس أشوفها.

ثم تساءلت:

- نجلاء فين؟

وجه ثلاثتهم نظرهم نحو الباب، فإذا بنجلاء تقف بشموخٍ يخفي الألم الكامن بقلبها، وتقول بحدة:

- اقري على صحبتك الفاتحة، وادعيلها بالرحمة... ثم أردفت في غيظٍ مكبوت:

- وأنا مش حشتكي لأبوها وأمها... لأ، ثم جلست بجانب راحيل، وأردفت:

- ده أنا حاصلبها على باب البيت علشان تكون عبرة.

بتلك الكلمات استقبلت نجلاء راحيل، فذاك القول لم ينبع من قلبها ولكنها حاولت أن تخفي به علامات الحزن التي لا تخفى، فأبصرتها راحيل في عينيها، وقالت:

- وحشتيني يا نجلاء.

هزت نجلاء رأسها في يأسٍ، وهي تقول:

- يموت الزمار.

- في إيه طب دلوقتي؟

- أنتِ مش ناوية تقوليلي يا خالتي أبدًا، حاموت قبل ما أسمعها.

تظاهروا أجمعين بابتسامات مزيفة تخفي ما قد حل بهم، وأكملوا الحديث بين الجد والهزل، وراحيل تحاول أن تتحاشى صالح طيلة جلستهم إلا من بعض الكلمات التي توجهها له بين الحين والحين، وفي نحو الساعة الثامنة ألحت عليهم في الذهاب كي يستريحوا من عناء ما سمعوا، ذهبا بعد أن قطعا على أنفسهما عهدًا بأن يسابقا شروق شمس الصباح بالإتيان إليها، وظل صالح بالغرفة... بعد تردد وجه حديثه إليها، وقال:

- اختفيتي فجأة، استسلمتي للمرض واختارتي الموت بعيد عن أهلك وصحابك واللي بيحبوكي، تعبت لحد لما وصلت ليكي... كنت حاسس إن الموضوع أكبر من مجرد سفر لأسوان.

تساءلت بلوم:

- بتلومني على إيه؟... أنا فضلت إني أبعد عن إني أعذب أي حد بمرضي، كان لازم أهلي يعرفوا، لكني خفت عليهم، قرار إني أقول لهم كان صعب، إزاي أقول لهم إن المرض تمكن مني، وممكن أموت في أي وقت.

- العمر بإيد ربنا.

سيطرت عليها الرهبة، وهي تقول:

- الخوف يكفي، الكل عارف حقيقة إن الموت بإيد ربنا ومكتوب في ميعاد محدد، لكننا موصلناش لمرحلة التسليم.

- وبالنسبة إنك خبيتي عني؟

- إزاي كنت هتستحمل إنك تكرر اللي عشته مع أمك تاني، نفس الملامح، والمرض، وغالبًا النهاية.

أجاب، متسائلًا:

- ومين قالك؟

نظرت إلى الأعلى، في محاولةٍ منها لتبسيط قولها:

- أنا هقولك، هاشم قال لسعاد وسعاد قالتلي، وكمان أنا استنتجته من الرسالة اللي بعتها.

- بس القدر مش بيتكرر.

- يتشابه، يتشابك، أيًا كان عشان يشكل سطور تانية، سطور لازم نقراها، ومع كل حرف نقراه بينقص من عمرنا.

شرد به الذهن برهة، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وقال:

دلوقتي حسيت إن الأيام بتتكرر، نفس ريحة المكان، ودقات القلب المتسارعة، والحزن، كأن الماضي بيتكرر بكل حذافيره... حدق فيها، وأكمل في جد:

- هقولك حاجة، ممكن دي تكون المرة الأولى اللي بقولها لحد حتى لنفسي.

انتبهت له، وهي تقول:

- سمعاك.

جابت عيناه أنحاء الغرفة في محاولةٍ منه لمنع الدمع إذا ما انهمر، وقال في هدوءٍ وببطءٍ في محاولة استرجاع الماضي الأليم:

- وقت لما أمي كانت مريضة، على قد ما قسيت معاها، لكن الفترة دي كانت من أفضل الفترات اللي مريت بيها، إن مكنتش هي الأفضل، ريحة الجو والطمأنينة اللي ملت قلبي رغم الخوف والقلق... بس الفترة دي كانت المحك... حسيت إني فاهم الدنيا على حقيقتها، ولما كنت بنزل المسجد أو أي مكان تاني كنت ببص للي حوليَّ وبشفق عليهم لأنهم عايشين ومهتمين بأمور ملهاش أهمية، شايلين هم أمور فانية... عارف إن كلامي غريب بالنسبة ليكي... بس هو ده اللي بحسه، ويوم لما ماتت أمي على قد ألم الفراق لكن ارتحت، نمت ليلتها وأنا ببكي خايف عليها لأن دي أول ليلة في القبر... خايف من الغربة اللي هتبقى حساها، لكن لما جى على سمعي صوتها اللي كان بيتكرر كل ليلة وآهات الألم، ارتحت لإني سبتها في أيد أمينة، ونمت مرتاح للمرة الأولى من سنتين عانيت فيهم.

- مش عارفة كلامك ده بيطمني ولا بيأكد لي النهاية، بس وصفك ريحني، ومع إني ارتحت في الأول اسمح لي أسألك...

ولو حابب تجاوب جاوب، ولو مش عايز غير الموضوع ومش حافتحه تاني.

وأردفت متسائلة:

- ليه الجفاء اللي عاملتني بيه أول لما شوفتني؟... عانيت من معاملتك للدرجة اللي قتلت أي شعور كان ممكن يكبر جوايا، نظرتي لنفسي اتغيرت، فحسيت إني قليلة أوي من وجهة نظرك وإن نظرتك ليا متختلفش عن الباقيين، بدأت أتخبى عنك وأبتعد عن أي مكان أنت فيه، لأن تجاهلك عذبني... ولما عرفت القصة وإن ده بسبب عقدة المرض والموت، وإني شبيهة ولدتك، وبدأ شعور الإعجاب يظهر جوايا، وأحس بيك، وأخاف على مشاعرك، تيجي أنت تهدم كل ده بكلامك دلوقتي، وتقولي إن الأيام دي الأفضل ليك وإنك متعذبتش.

قال في تأثر واضح:

- ده صراع جوايا، مش علشان قولت إن الأيام دي كانت الأفضل بالنسبة ليَّ معناها إني مش فاكر الجرح والألم... على رغم كوني مؤمن بالقدر لكن الفراق صعب، النبي وهو أعظم الناس وأكثرهم إيمان، حزن على وفاة السيدة خديجة وعلى عمه أبوطالب وكان العام ده عام الحزن بالنسبة له "عليه الصلاة والسلام".

ثم حدق النظر فيها، وهو يتساءل:

- فهمتيني يا راحيل؟

أجابت بصوتٍ ضعيف:

- فهمتك، فهمت حاجات كتير جواك أكتر من الحوار اللي حصل دلوقتي... أنت غريب يا صالح، وكل لما أحاول أفتح باب من أبواب غموضك ألاقي أبواب تانية.

أنهى صالح الحديث، بقوله:

- وصلتلك امتى الرسالة اللي بعتها مع حياة؟

- النهارده.

- حياة دي ساعي بريد بطيء أوي!

- جدًا، لما أشوفها بس.

-إنتي بتشيلي للدرجة؟!

توعدتها قائلة:

- بس لما تجيلي بكرة قبل ما تسافر!

جاء الغد وحياة جالسة مع مهدي في (كافيتريا) المستشفى، بدأ مهدي الحديث بقوله:

- أكدر أطلب منك طلب؟

- علشان أنا طلبت منك قبل كده، صح؟

قال نافيًا ظنها باللهجة المصرية:

- لا طبعًا، إنتي سألتيني في قصة صحبتك وقولتلك، ثم إلتقط أنفاسه، وأكمل:

- كولي لأهلها هيه مريضة، نصحتج بالاي المفروض راح يصير، بس مانتظرت مقابل...وهسه دا أطلب مساعدج.

- براحة، أنا بهزر... أتفضل اطلب؟

قال:

- أمي مصرية.

أومأت برأسها:

- أيوه عارفة، وبعدين.

قال في شيءٍ من التوسل:

- أني أريد أدور ع أهلي اللي بمصر.

مستفسرة:

- وأنت تعرف إيه عنهم، عناوين؟ أسماء؟

قال بحسرة:

- ما عندي هسه الجواز اللي طلعت بي أمي من مصر، وما عندي عنوان، كل اللي أعرفه هيه جانت عايشه بحي(شبرا).

قالت مستنكرة:

- هو أنت عارف شبرا فيها قد إيه؟!

- لا ماعرف، بس واضح من كلامك هيه جبيره.

- جدًا جدًا، بس هحاول... ادیني اسم والدتك رباعي وأنا أبحث بمعرفتي.

- أتمنى إنو تعرفين مكانهم.

سحبت فنجان القهوة نحوها، وهي تقول:

- حاحاول، وإن شاء الله نلاقيهم، ثم أردفت:

- ده بقى بخصوص أهلك اللي هنا، بخصوص أهلك اللي في العراق... مش شايفة حد منهم هنا.

بدأ يسرد:

- جانت نوار وزوجها الشيخ قاسم ابن عمي هنا أول شهرين... ولما حالتي صارت زينه رجعت للعراق علمود أولادها.

تساءلت حياة برقة:

- ودلوقتي؟!

- صارت مثل الأول وأحسن، أحسن من أي فترة قبل بعد ما شفتك.

هزت رأسها عجبًا، وهي تقول:

- سبحان الله... يعني أنا كنت مسافرة أسوان اليومين دول... وبعد ما شوفتك اعتذرت وتحججت بالمرض.

قال محذرًا:

- اللي تمارض مرض.

- أنت بتخوفني؟

- مو متقصد، بس داوضحلك حقيقة حطيها ببالك.

قالت باسمة:

- على العموم هي كدبة صغيرة قصدت بيها إني أكمل معاك الأيام القليلة اللي هتخلص بعد بكرة.

- وإذا... ممكن الأيام هاي تستمر لنهاية العمر.

تساءلت بلهجته:

- أشلون؟

قال ضاحكًا:

- صرتي تحجي عراقي، وهذا دليل إنك تصلحين لطلبي... تتزوجيني يا حياة؟ وممنتظر جوابج هسه، عارف شعورك هسه بس ما ريد منج جواب إله بعد تفكير.

غمرت السعادة قلبها في تلك اللحظة، بعد أن تحقق ما تمنته من قبل وتخلت عنه ظنًا منها بأن ما يدور في عقلها ما هو إلا وهم، لكنها الآن بدأت تتذكر ما كان من قول راحيل لها:

- تخيلي واتمني فكل متوقع آتٍ.

على رغم علمها بأن قول راحيل مستمد من أقوال الحكماء، لكنها أحبت أن تستمع له بصوت راحيل...ولم تبخل حياة في أن تحقق لمهدي أمنيته بعد أن حقق الله لها ما تمنت... ولم تهلكها مشقة البحث بعد أن جلست بجانب والدها المحدق النظر في التلفاز، وقالت:

- حاج أحمد

- إيه يا حياة؟

- كنت عايزة أسالك عن واحدة كانت ساكنة هنا في شبرا.

- هو حد قالك عني شيخ حارة؟!

قالت ضاحكة:

- لأ، بس قلت أسألك، لأن ابنها كان بيدور على أهلها.

تساءل في غير اكتراث:

- اسمها إيه؟

قالت:

- نرجس... استني أفتكر... آه، أسمها نرجس عبد الحميد... خضير.

التفت لابنته مسرعًا، وتساءل:

- كانت عايشة هنا امتى؟

- أفتكر أن هي سافرت من هنا أول الستينات.

تساءل مرة أخرى:

- هو ابنها اللي بيدور عليها اسمه إيه؟

- مهدي.

قاطع قولها:

- راكان الحسيني.

تساءلت متعجبة:

- عرفت منين؟ وعمال تقولي هو أنا كنت شيخ حارة ...

لم يلتفت لحديثها، وتساءل:

- المهم هو فين دلوقتي؟

- في فندق قريب هنا في رمسيس.

- تعرفي تروحي تجبيه؟

مستفسرة:

- قولي ليه؟ وأنا أجيبه، على الأقل أفهم عرفت أهله أو أي معلومة صدفتك قبل كده.

أصر عليها:

- هاتيه وقوليله والدي عايز يشوفك.

- حاج أحمد، وضحلي أقوله إيه.

قال في نفاد صبر، وهو يدفعها نحو الباب:

- هاتيه وإنتي هتعرفي... وافتكري اسم جدك الكبير...

أكمل وهو يصر عليها بالذهاب، ويوجهها نحو الباب:

- فالحة بس تحفظيلي أسماء ملوك ماتوا.

قالت محتدة:

- براحة طب يا بابا... حاجيبه والله، ثم إنه يخلق من الاسم أربعين..

أجابت والدها لا لتنفيذ رغبته أو تحقيق أمنية مهدي، ولكن كي ترضي رغبتها في المعرفة، وبعد ساعة من آخر قول لأحمد، أبصر من نافذة بيته ابنته تخطو نحو البيت مع شاب ربما كان في منتصف العقد الرابع من عمره، أسود الشعر واللحية، يسير في وقارٍ حتى دلف إلى داخل البيت، أسرع أحمد نحو الباب ينتظره، وعندما بلغ مهدي الباب، تساءل أحمد في لهفة:

- أنت مهدي ابن نرجس؟

قال مهدي:

- إي بس أنت تعرف أمي؟

أسرعت حياة إلى غرفتها بأمر من والدها وظلت تسترق السمع...

قال أحمد مجيبًا سؤال مهدي:

- أستريح الأول، بعدين أحكيلك.

ثم بدأ يسرد:

- نرجس دي بنت عمي، كانت زي أختي الكبيرة، دايمًا كنت بقعد معاها، ولما سافرت الحج مع جدك وجدتك زعلت وعيطت إنها حتبعد عني كل الأيام دي، لكنها قالتلي متخافش كلها شهر أفرح فيه بالعيد... وبعد مارجعوا من الحج رجع معاهم شاب فيه شبه منك قالولي وقتها إنه طالب بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، جي من العراق يكمل دراسته الجامعية ودي آخر سنة له، اسمه راكان الحسيني، قابلناه في الحج وطلب إيد نرجس.

تساءل مهدي في أدب:

- عندج صورة الها.

مد له يده ببعض صورها المحفوظة داخل مجلد:

- طبعًا، أهي شوفها، أنا طلعتها ليك أول ما حياة نزلت تجيبك... حسيت إنك ابنها من قبل ما أشوفك.

- ليش؟

- مجرد إحساس.

أخذ مهدي يقلب النظر في صور أمه، تكاد عيناه ترق دمعًا وهو يستمع لقول أحمد:

- جميلة، وهادية، وحشتني جدًّا، اختفت أخبارها عننا بعد سنة من السفر بعد ما مات عمي، ثم تساءل:

- صحيح أخبارها إيه؟

رفع مهدي عينيه، وقال:

- أمي نرجس؟

- أيوه يا ابني، صحتها عاملة إيه فكرانا ولا نسيتنا؟

قال بصوتٍ حزين:

- أمي ماتت.

- من امتى؟

وهيه تولد أختي نوار، ثم تابع موضحًا:

- من سنة سبعين.

بدا عليه الفزع ويكأنه يستحضر يوم وفاتها، وقال في كدر:

- ماتت غريبة معرفش عنها حاجة...

ثم أرْدَفَ في حزم:

- وأنت جي تدور على اللي باقي منها هنا علشان تاخده.

- شتقصد؟

قال في تأثر:

- حياة بنتي، فاكرني معرفش، أنا فاهم من أول مرة بنتي كلمتني عنك... إزاي تآمن إنك تحكي عن حياتك وأهلك لإنسان عادي، أنا حسيت كده من وقت ما حكتلي عنك، بس أنا مش موافق... مش هقبل إن بنتي تكرر نفس مصير نرجس.

حاول أن يطمئنه، قائلًا:

- ومنو كال إنها رح تكرر نفس مصيرها، بالعكس دائمًا حتبقى تتواصل وياكم.

- أنا برفض يا ابني، أتمنى أنك ترجع بلدك وتلاقي واحدة هناك مناسبة، لكن حياة مستحيل.

قال في حدةٍ لم يستطع أن يخفيها:

- بس رفضج مرح يمنع أمر اللّه إذا كان هو فراقك الها.

ربما يظن البعض أن أمل حياة قد ضاع في تلك اللحظة، لكنها لم تشعر بذلك، كانت واثقة بأن القدر الذي وضع مهدي في طريقها، قادر على أن يكمل ما تمنته، ولم تجد سبيل لذلك سوى راحيل التي امتنعت عن الذهاب إليها ذلك اليوم، فظنت راحيل أن حياة انشغلت بالسفر عنها... حتى دقت حياة باب غرفة راحيل، وكان أول قولها، بعد أن سمحت لها راحيل بالدخول:

- أهلًا.

ابتسمت راحيل ابتسامة صفراء، وهي تجيب:

- أهلين، أنتِ عارفة أنا لو في صحتي كنت ضربتك.

أسرعت حياة نحوها وجلست عند أطراف فراشها، وهي تقول:

- ما أنتِ لو في صحتك مش حيبقى في داعي إنك تضربيني، لأن مشكلتك إني قولت لصالح ونجلاء إنك تعبانة، فلو مش تعبانة مش حيبقى في موضوع من الأساس.

تعجبت راحيل من قولها، وقالت مستنكرة:

- نعم؟!

قالت حياة في برود:

- أنعم الله عليكي، استغربتي كلامي صح؟ من عاشر القوم يا ستي.

فسألتها:

- قوليلي، مسافرتش ليه؟

- قلت أقعد معاكي.

تساءلت راحيل:

- جيبي من الآخر، قعدتي ليه؟

- مش مصدقة ليه؟ قلت أقعد معاكي... بجد متبصليش كده.

- مبتعرفيش تكذبي لازم ضحكتك تكذبك.

- طب هقولك، بس احميني من نجلاء.

- هو الموضوع ليه علاقة بيها؟

هزت رأسها نافية:

- لأ.

- أمال!

بتكلم على وجه العموم، ثم أضافت بنبرة مشحونة بالخوف:

- أنا بطلع السلم بهدوء عكس ما اتعودت علشان خايفة لتسمعني، وكل لما تنزل تقعد مع ماما أحبس نفسي في الأوضة وأعمل نفسي نايمة.

- يعني هي لو عايزة تضربك هيفرق معاها إنك نايمة أو صاحية، ومتخافيش مش حتعملك حاجة إنتي عارفاها، قالت كده من غيظها، ثم ألحت عليها، قائلة:

- ها... احكي.

سردت لها حياة ما حدث منذ أن أعطتها رسالة صالح إلى ما دار أمس بين أبيها ومهدي، أكدت لها حياة صدق قولها وأن للكون أسرارًا كما أخبرتها راحيل بذلك من قبل، فتشابكت أمنيتها مع أمنية مهدي، وجمعهما القدر كما جمع هاشم وسعاد اللذين كانا في زيارةٍ لها في المستشفى بعد مضي مدة من زيارة حياة لها، بدا حديثهما غريبًا عليها، فتساءلت متعجبة:

- أنت بتقول إيه؟ معقول بالسرعة دي تجوزوا.

قال هاشم:

- البعثة دي فرصة بالنسبة لينا ولو ضاعت حنندم عليها طول العمر، والتفت لسعاد ، وقال:

- مش كده يا سعاد ؟

أكدت سعاد قوله:

- طبعًا لازم نسافر.

- نفس البعثة إزاي وأنت تخصص وهي تخصص تاني.

فسر لها هاشم ، بقوله:

- ما هي قدمت ورقها في الجامعة هناك للدكتوراه واتوافق عليه.

ثم سألت راحيل هاشم في اهتمام:

- صالح قالي إن البحث بتاعك في موضوع أنا مغرمة بيه... ولما سألته عنه قالي هاشم هيقولك.

- باختصار فكرته عن التصوف الإسلامي في المغرب العربي.

تساءلت:

- ومين أوحالك بالفكرة دي؟

- تمثال صغير كان مع صالح.

تبسمت وقالت في مكر:

- بس التمثال ده عن المولوية... والمولوية مش في المغرب العربي.

ذهلت سعاد ورفعت حاجبيها ، متسائلة في دهشة:

- إنتي عرفتي منين؟ ثم أردفت في لهجة طبيعية:

- هو مجرد وحي جاله وهندم الفكرة حسب تخصصه في التاريخ الإسلامي.

حينها تأكد لراحيل ما حسبته من قبل بأن التمثال لابد وأن يكون مع صالح، لكن أن كان الأمر كذلك فمن هو المالك الحقيقي للتمثال؟ من الذي وضعه أمام بابها منذ سنوات؟ وعلى أي حال عادت لحديثها معهما، فقال هاشم:

- إنتي خدتينا في الكلام عن الرسايل ومسألتيش امتى الفرح!

- يعني هي جت على سؤالي، ما أنتوا رتبتوا كل حاجة، وعلى العموم امتى؟

قال ببساطة:

- في شهر ستة هنكتب الكتاب ونسافر، ومش هنعمل فرح.

صاحت في فزع:

- بسرعة كده؟!

قالت سعاد:

- يدوبك....وكل كام يوم هنكلمك.

من قبل... كانت تشعر بأنها أشبه بالمتحرك في سحبٍ ثقال، فالأيام بدت في عينيها طويلة لا معنى لها، تمر بها أشباح الزائرين كل ليلة، هؤلاء الذين تعودت زيارتهم لها بعد أن هجرت الأحياء، لكن حالها الآن تبدل بعدما أزاحت عنها حياة العبء الذي كان يُثقل كاهلها، وأخبرت أهلها بما حل بها من

شدةٍ ستنتهي قريبًا بإذنه سبحانه، فبدأت تناجي ربها، فليس بربها وحدها بل رب الجميع، لكنها تعبده وحده ولا لأحدٍ في تلك الحياة الحق في أن يُعبد من دون اللّه، فإنها تعبده وحده لأنه الرب الكريم، كم أحبت تلك الصفة في خالقها، ولأنها تثق بخيره؛ فيجود عليها سبحانه دائمًا بذلك الخير، فلم تكن تملك في تلك الأثناء إلا أن تناجيه باسمه الأعظم، الاسم الذي حير الكثير، فصاروا يبحثون عنه في طريق اللفظ لا المعنى، ولو نفضوا عن أنفسهم تلك الساذجات سيرون أن اسمه الأعظم سبحانه مستقر بداخل القلب، فإنه سبحانه قريب قربٌ غير مشروط، فهو لا يتخلى عن دعوة عبده من أجل بضع كلمات لا تنقص من عظمته جل علاه، فقالت في تأدب:

- يارب...لقد ضاقت الأرض ولم يضق صدري برحمتك، وعطفك، ومددك، مازلت أنتظر جودك حتى آخر لحظة في حياتي، فأنا على ثقةٍ بأنك سوف تستجيب في الدنيا أو فيما هو أفضل في الآخرة، فأنت تعلم أنني أخشى أن أشق على أحدٍ، ولا أرغب في أن يتحمل غيري ما يؤلمني، فأنا قوية بك يا قوي، أقوى مما يتصوره الجميع، أستطيع تحمل كل شيءٍ حتى وإن كان الموت في تلك الحياة، قادرة على الشقاء والتعب طيلة حياتي، لكنني لا أستطيع إكمال تلك المسيرة دون وجودك بجانبي، دون أن يصبح اسمك شفاء لقلبي، وأن يصبح

لقاؤك أملًا لي في الخلاص، فعندما يُرفع عني أحد أنوارك سوف أنسى الدنيا بهمومها وذنوبها، وأحيا لتلك اللحظة التي يراك فيها القلب، يا مولاي فرجٌ قريب يتزايد فيه الشكر والثناء عليك، يا مولاي اعطف عليَّ بجودك.

انتصف النهار عندما غادرت حياة مع مهدي العربة، اتجها للسير في طرقات حي (شبرا)، بعدما طلب منها مهدي السير في طرقات الحي الذي كثيرًا ما سمع وصفه من أمه في صغره، كان حديثهما عامًا عن مبادئ وآراء، حتى استَوْضَح مهدي عما إذا كان أبوها عدل عن قراره أم لا، أجابته وهي تستمر في سيرها المُتباطِئ:

- لسه، معرفش هو رفض ليه، رغم إنه قدم مبرراته لكني ببحث عن المشاعر الخفية اللي وراها إذا كانت خوف، قلق، حب زيادة لبنته، أو إنها خليط من كل اللي قلته، ممزوج بالخوف من تكرار الماضي.

قال وهو ينفخ دخان سيجارته:

- اله حق وماكدر ألومه، أني بنفسي خفت عليه من سألني عن أمي، خفت أقتل اللهفة اللي بصوته وبملامح وجهه، لكني كلتها وكتلت الأمل الوحيد الباقي اله.

قالت مداعبة:

- يا سلام... يعني أنت مش عايزني هسه.

- إنتي تشاقين ومحاسة بالمشكلة اللي احنا بيه، الحج أحمد والدج يا خاتون رفض ومستحيل يوافق.

قالت بثقة:

- مين أوهمك بكده، بالعكس حيوافق و يقتنع.

- ياريت يكون عندي ثقتك اللي تحجي بيها.

- وإيه اللي يمنع الثقة دي غير الشك والخوف.

قال باتزان:

- بعمرج مرح تكونين مثلي يا حياة، لأنو احنا نأخذ من الطبيعة ملامحنا وهي اللي تشكل شخصيتنا، فجنت أنتِ مستقرة هادئة مشرقة مثل أرضج، وجنت إني مرهق قلق.

تساءلت:

- فلسفة جديدة؟

- مو فلسفة.

- أمال إيه؟

- ما هو إنتي لو جنتي تقرين، جنتي رح تفتهمين كلامي من دون شرح، بس شكول عليج أكثر من إنج كسولة.

- من غير ما تحط فلسفة تانية، اشرح اللي قلته.

بدأ يوضح لها القول باللهجة المصرية:

- حاجة بسيطة جداً قرأتها في كتاب مش متذكر اسمه، كان بيتكلم عن تأثير الطبيعة في الإنسان وفي حضارته وضرب مثل بالمصري، قال إن المصري مستقر بطبعه منذ فجر

التاريخ لأنه تعود أن الطبيعة تمنحه اللي محتاجة دون أن يصارعها، أما احنا كانت الطبيعة قاسية علينا، فكنا مضطرين إننا نصارعها أغلب الوقت.

تساءلت، وهي تسرح ببصرها:

- كل ده وحاجة بسيطة... بس السؤال هنا إن المثالين اللي ضربتهم كونوا حضارات عظيمة لسه العالم متذكرها، فإذا قلنا الأفضلية لمين، هتكون لمين في الحالة دي؟

قال بحزم:

- للي استمر وجان حاضره مثل ماضيه.

قالت في مرح:

- على رأي سعيد صالح، كلام كبير أوي صعب على أمثالي فهمه.

قال مستفسرًا:

- مسرحية صح؟

أدهشها رده السريع:

- بالظبط... أنت ليك في الفن كمان؟

- أعرف، بس محافظتها مثلك.

- وأنا برضه ليَّ في الفن.

تساءل في اهتمام:

- تحبين أي عراقي تشوفي أو تسمعي؟

- أغنية كده قربت على عشرين سنة، وبدأت تدندن:

- ليش ليش... ليش يا جارة....

أجابها:

- ما تردين الزيارة...

وأكملت الغناء معه بصوتٍ منخفض طيلة طريقهما بعد أن ملأ اليقين قلبها بأن راحيل خير وسيلة تحقق لها ما تمنت، بدأت راحيل في مهمتها فسألت أباحياة عندما كانت تجلس معه في كافيتريا المستشفى، في في أثناء إحدى زياراته لها:

- أنا حقيقي يا عمي مش عارفة ليه الخوف ده!

أجاب بمرارة:

- الخوف من الفراق، إنتي متعرفيش حاجة عن اللي حصل من حوالي سبعة وثلاثين سنة قبل ما تتولدي أنتِ وحياة بسنين... جي عمي وقال لوالدي إن نرجس اتقدملها شاب عراقي اتعرفنا عليه لما كانت معانا في الحج، كنت وقتها لسه صغير واقف جنب والدي وهو بيتكلم مع عمي وبيبارك له، بس جدك عبد الله سأله، وقاله:

- وليه تسافر؟ مش أحسن إنها تقعد هنا، وقتها عمي عبد الحميد رد بكلمة مش حاقدر أنساها ... قاله ده قدرها واللي ربنا كتبه سبحانه...وسفرت نرجس اللي كانت بالنسبة لي أختي الكبيرة الحنين، اختفت أخبارها، لحد لما جت حياة بنتي قالتلي أنا في واحد اسمه "مهدي راكان الحسيني" بيدور

على أمه، اكتشفت في الأخير زي ما إنتي عارفة أنه ابن نرجس، وإنها ماتت من سنين من يوم ما كانت بتولد نوار،

ثم أكمل في حزن:

- احنا فين من كل ده...ودلوقتي جايين ياخدوا حياة.

- بس ده القدر يا عمي... بيتحقق في الوقت اللي كاتبه ربنا... والخوف عمره ما كان أساس يتحكم فينا.

- وضاقت بيها الدنيا أوي علشان تتجوز من بره مصر.

- مش هقدر أقول غير اللي قاله عمك، إن ده المكتوب.

قال في ثقة:

- بس لو قلت لأ، مش هتتحقق أي من ظنوني.

- لو قلت لأ، يبقى ده برضه مشيئة الله.

أجاب:

- يبقى يعيش بيها هنا في مصر.

تبسمت عندما علمت أن قولها التالي سينهي الجدال الدائر بينهما:

- أضرب لك مثل بسيط... إبراهيم الخليل كان من العراق لكن أم ابنه الأكبر السيدة هاجر من مصر وبعدين...

(١١)

بعد طول جدال استطاعت راحيل أن تحقق أمنية صديقتها حياة، وبعد أن ذهب والد حياة عنها انسحبت لفراشها وبدأت تلوم نفسها، وتسجل ما دار بعقلها في تلك اللحظة بدفترها الأبيض، فكانت تقول:

- أكنت كاذبة عندما أخبرته بأن الأقدار متغيرة، وأن مخاوفنا ليس لها أساس إلا في ذلك الركن المظلم من عقولنا، حاولت أن أزيح عنه ظلام الشك، مؤكدةً له بأن تلك المخاوف التي تدور في عقله ما هي إلا وساوس ألقها الوَسوَاس وانجذبت إليها نفوسنا المظلمة، فأنا في حيرةٍ من أمري بعد أن تيقنت منذ أشهر بأن الأقدار تتشابه وتتشابك، وأن ما أصابني الآن أصاب أمه لصالح من قبل، بكلماتي العذبة نزعت الخوف من قلبه وزرعته في عقلي، أتساءل الآن مالذى ينتظرك يا صديقتي، أخشى أن يحق ظني ويكون لقاؤك مع مهدي منذ اليوم الأول بداية سلسلة أحزان، خيل إليَّ أن ما يحدث حتى الآن ما هو إلا قصة مازلت أقرأها ولم تنتهِ، أنتظر من يأتِي كي يوقظني من غفلةٍ قد طالت، وبعد طول صراع يتضح لي أن تلك لم تكن غفوة، بل هي صفحة في كتاب الحياة، حتمًا سأفرغ من قرأتها، لكن متى؟ وكيف؟ تجوب عيناي تلك الورقة لعلي أطلع على ما هو آتٍ، لكني أجدها فارغة لا تحمل إلا ما قد مضى من أحداث لن تعود، وأن ذلك

الفراغ يمتلئ مع كل خطوة من خطانا، نولد صفحةٍ بيضاء تسطرها أفعالنا، فإن ما يحدث مُقدر قبل أن نصبح أجنة في علم الغيب، حيث لا شأن لنا بما هو دائر على مسرح الحياة، زادها المرض حكمة وهي لا تدري،أمس القريب كانت تبحث عن الكلمات العذبة تلك؛ كي تنشرها وتحقق بها ما تشاء من نجاح، لكنها وللمرة الأولى تجد نفسها مع السائرين في ذلك الطريق، مازالت تصعد معهم ذلك المعراج وتردد القول والثناء على الحبيب، وبجانبها يسير الجيوشي، ويتساءل:

- كيف كانت رحلتك؟

لم تستمع لقوله وظلت هائمة تردد ما ينشده السائرون، متبعين رجل لم تبصر وجهه بل رأت جلبابه الأبيض مثلما وصفه لها الجيوشي من قبل، ومازال ذلك المعراج المزركش بأزهى الألوان وحافتيه المزينة بآيات الله وصلواتٍ على الحبيب يتمدد كلما ظنت أنه لم يتبق سوى مساحات قليلة ستنتهي معها خطواتها تلك، التفت لها الجيوشي مرة أخرى، وقال:

- هو إنتي عارفة هما بيقولوا إيه؟!

طبعًا عارفة... وأنشدت في ثقةٍ، قائلة:

- هذه الدنيا كساعة، فأجعل الأعمال طاعة... واشتري خير البضاعة في رضا الهادي محمد.

- وحفظتيها امتى دي؟!

قالها صالح لراحيل وهي توشك الرحيل من ذلك المستشفى، ممسكة بحقيبتها في يدها بعد أن أبت أن يحملها صالح، وبجانب صالح تسير نجلاء الممسكة بيد راحيل... لحظة:

- ففي أي شهر وأي سنة نحن؟ أمس كان والدها لحياة في زيارة لراحيل، واليوم تركت راحيل المستشفى.

- بماذا يفيد الزمان والمكان؟ فالأهم هو ما صار عليه الإنسان، وعلى أي حال، فاليوم هو الثامن من ديسمبر لنفس العام، مرت الأيام وأتم الله عليها الشفاء والتعافي، فقررت أن تترك ذلك المستشفى الحزين، الكئيب، التي لا يُسمع فيه سوى صوت القلوب التي تعتصر حزنًا.

تبسمت لصالح، وقالت:

- حفظتها من مدة طويلة جدًا، لو حكيت لك حفظتها إزاي مش هتصدق.

تساءل في اهتمام:

- قولي.

قالت بعد أن تجاوزوا بوابة المستشفى:

- شفت إني برددها في المنام من كام شهر، ولما صحيت لقيت نفسي عرفاها.

سخر صالح من قولها، وقال:

- تلاقيكي مشتاقة إنك تكتبي قصص من تاني، وعلى العموم لما ترجعي من أسوان هترجعي الجرنان.

أغضبها قوله وسخريته؛ فأصابها الصمت وخيبة الأمل، ظنت من قبل بأن صالح أضحى من السهل أن يتفهم قولها ويستشعر بما في قلبها، لكنه لم يصل إلى تلك الدرجة التي تمنتها راحيل، فكيف له أن يصدق ما رأت وعقلها مازال ينفيه بين الحين والحين، أحقًا رأت الجيوشي في منامها وحدثها بما يدور الآن في عقلها، أم إن الأوهام اتخذت مجلسًا بداخله، هذا ما بدا لها أول الأمر، لكن سرعان ما أعادت إلى وجهها روحها الخفيفة، وقالت:

- طبعًا محتاجة ارجع، وحتكون دي أول قصة أنشرها.

التفتت إليها نجلاء، وقالت في حزم:

- هو إنتي لحقتي ترتاحي عشان تقوليلي حارجع الجرنان... مش قبل الألفية الجديدة هترجعي.

استسلمت راحيل لقولها، وقالت:

- حاضر... مش قبل الألفية، والقرن، والسنة الجديدة... حاجة تاني؟

ثم سألت صالح في شيءٍ من المكر:

- هو أنت مشوفتش التمثال؟

- تمثال إيه؟!

- التمثال ...اللي أوحى لهاشم بفكرة البحث.

هز رأسه متفهماً، في حين تبسمت هي بسمة خفيفة لم ينطق بشيءٍ بعدها.

كان من الأفضل لراحيل أن تستجم في مكانٍ بعيدٍ عن القاهرة، حتى تتخلص من شدة ما كانت تعانيه مع مرضها، وكان اقتراح فارس هو الأمثل لها عندما دعاها للإقامة في أسوان حتى نهاية العام هي ونجلاء وسعاد، ثم دعا الشيخ صالح كي يستعيد معه ذكريات العام الماضي وما مر بهما من لقاء الجيوشي الذي امتنعا عن الإفصاح بما دار بينهما وبينه، لكن أين للشيخ الجيوشي من مكانٍ في تلك الأرض؟ وكيف أضحى حال عمار؟ وكيف وجدها؟

كيف وجدها؟

تبسم عمار لقول راحيل، ثم ألقى عليها السلام، فأجابته مشرقة المحيا، وتساءل:

- جيتي امتى؟

جلست على إحدى المقاعد بالقرب من محل العطارة الذي اشتراه عمار وبدأ من خلاله مزاولة المهنة الأشهر في تلك المدينة، تساءلت راحيل مجدداً:

- كيف وجدها؟

جذب الكرسي المجاور لراحيل، وابتعد به قليلًا حتى استقر عليه، وهو يقول:

- نفس السؤال اللي سألهولي الجيوشي من سنة، الله يرحمه.

قالت وهي لا تصدق أذنيها:

- مات... امتى؟

- في إبريل اللي فات... الله يرحمه.

تمالكت نفسها، وقالت بهدوء:

- الله يرحمه، كنت بتمنى إني أشوفه عشان أسأله في تفسير منام... سبحان الله شوفته في المنام في نفس الشهر اللي مات فيه وكنا بننشد مدح في الحبيب رغم إني مشفتهوش قبل كده، بس سبحان الله كنت عارفة وقتها إنه الجيوشي.

ردد عمار ببساطة:

- هذه الدنيا كساعة، فاجعل الأعمال طاعة ..واشتري خير البضاعة في رضا الهادي محمد.

أدهشها قوله، فتساءلت:

- عرفت منين؟

اتجه داخل (الدكان)، وقال وهو يُحضر إناءً زجاجيًا رسم بداخله بعض الأشكال المستمدة من الطبيعة بالرمال:

- قوليلي الأول رأيك في ده إيه؟

أبدت إعجابها الشديد، وتساءلت:

- هو أنت اتعلمتها امتى؟ افتكر إنك كنت موضح في رسالتك إنك متعرفش حاجة غير الكتابة، وكمان بدأت فيها بعد ما شفت الجيوشي.

تنهد وقال:

- الجيوشي قالي:

- عندما تبدأ السير؛ ستجد الطريق.

- ووجدته؟

- قوليلي إنتي، وجدتيه؟

هزت رأسها نافية، وقالت:

- لأ... عشان كده جيت واتمنيت إني أشوفه بعد ما رفض فارس قبل كده إني أشوفه، بس باين إن رغبته هي رغبة ربنا سبحانه وتعالى، ثم عادت تتساءل:

- صحيح، مات إزاي؟

- سر مقدرش أقوله، لكن ممكن أحكي الموقف من غير التفاصيل.

بدأ يسرد القول في سكينة وعيناه تكادُ تفيض من الدمع، قص لها ما حدث منذ الليلة التي رأى في منامه أنه يسير على غير هدى في صحراء رمالها كأنها حبات ذهبٍ متناثرة، وسماؤها زرقاء صافية، تزينها النجوم المضيئة والكواكب الدرية .. أخذ يسير فيها حتى اقترب من مكان ممتلئ بقناديل

الإنارة تحل محل نجوم السماء، وعندما بلغ السعي وجد الجيوشي مستقرًا حيث آخر بقعة وصلت لها قدماه، كان وجهه مضيئًا كأنه القمر في ليلة تمامه، وكأن العمر عاد به إلى حيث الشباب، جلس بجانبه بعد أن أهلكه السعي، وتساءل:

- أين أنا يا شيخ؟

لم يجب الجيوشي، وظل صامتًا لمدة طويلة انتقل في خلالها من مجلسه لبوابة من النور ظهرت بشكل جلي عندما اقترب منها، فناداه عمار:

- إلى أين أنت ذاهب؟

التفت إليه، وقال باسمًا:

- عائد.

- وأنا يا شيخ؟

لم يلتفت إليه وتقدم يدفع البوابة بيده اليمنى، نهض عمار من مجلسه وأسرع نحوه، لكن كلما شعر بأنه اقترب من الوصول عاد إلى الوراء أميال وأميال، حتى يأس من الوصول، فتوقف وصاح به، قائلًا:

- إن صعُب عليك إجابة السؤال السابق، فأجبني عن هذا السؤال عسى أن أستريح، أخبرني، كيف عدت إلى شبابك يا شيخ؟

التفت الجيوشي، وقال:

- لإننا ندخل الجنة بقلوبنا وقلب المؤمن لا يشيب ...لا يشيب يا عمار.

واستيقظ عمار حينها من النوم وهو في حالة فزع أجبرته على الإسراع نحو الجيوشي، وعندما ذهب إليه وجد جسده ممددًا على الفراش وروحه تنشد تلك الأبيات.

بعد ما يقرب من نصف ساعة استأذنت راحيل عمار واتجهت نحو بيت عمها فارس، كانت متعلقة بفارس للدرجة التي يصعب وصفها بمجرد كلمات تكتب وتنشر، فكان هو أيضًا يعتبرها ابنته على رغم فارق العمر الطفيف، فهي مثله حققت آمالها وأضحت كاتبة، كما صار هو طبيبًا من قبل، فكم تمنى وهو صغير أن يُصبح طبيبًا يخفف عن بني الإنسان أوجاعهم، وعندما تحقق له ذلك، وقف عاجزًا أمام إرادة الله، كم من مرةٍ وقف أمام المرآة ينظر إلى صورته فيها متعجبًا من هيئته، يدقق النظر في تفاصيل وجهه كأنه يشاهدها للمرة الأولى، وبعد أيامٍ وحده الله القادر على أن يمحو أثرها من عقله من شدة ما عاناه مع غربة النفس، طرق زائر مجهول بوابة خوفه، بات يخشى أن يغلق عينيه حتى لا يفاجئه الموت، وبدأ يفترش الخوف مضطجعًا يستقر عليه طيلة الليل، وفي أثناء نومه يفتح عينيه بين الحين والحين، يتساءل:

- أين أنا؟كأن العالم أضحى غريبًا عنه، حاول مرارًا حين يباغته هذا الزائر أن يبث في قلبه الأمان ويبدأ البحث في كتاب الله عن آية تشعره بالأمان وتزيح عنه ذلك الهاجس، لكن كيف بعد أن تمكن الخوف منه! فكم من مرةٍ عزم فيها على ترك دراسة الطب، دائمًا ما كانت توقظ الخوف بداخله، كان شاهدًا لمراتٍ عدة على الفراق، رأى أرواح تنزع من الأجساد، وأجساد تنفر الروح، وأخرى متأرجحة، تعايش مع كل منها مشاعر الخوف والدهشة وأحيانًا الفرح، عند من رفضوا الحياة وتعجلوا لرؤية الرحمن، مع كل روح تدفن يشعر بأنه هو الذي وارى الثرى جسده وانتظر في وحشة القبر مصيره، يخوض معمعة الموت كأنه طرف فيها، ولم يجد في دراسة الطب ما يراه البعض من تفاخر وتباهٍ، والآن في أسوان يقف أمام النيل قبيل غروب الشمس، يحاول تخطي ما أصابه صباح يومه بعد أن شهد موت مريضه وصديقه عامر، عاش معه أيام طويلة حتى اعتاد رؤيته وصارا صديقين يتبادلان الحديث في أوقات الفراغ، ففي صباح يومه هذا عندما وطأت أقدامه المستشفى، وصله خبر المرض الذي اشتد على عامر منذ بزوغ شمس الصباح، فأسرع إليه وحاول أن ينعش قلبه بتلك الصدمات الكهربائية بدلًا من صادق زميله، أخذ يقلب النظر بين شاشة الجهاز وبين المنضدة المتراص عليها لوحة الشطرنج، وتوسله، قائلًا:

- فوق عشان نكمل دور الشطرنج... أنت أكيد بتهرب منه لأني كنت حاكسبك خلاص ....

ربما كان يتمنى أن يعود إليه تلك اللحظة ولم يستطع بعد أن أصر رسل اللّه أن لا يخالفوا أمره جل علاه، حبًّا له سبحانه قبل أن يكون خوفًا من غضبه، ورحل عامر صديقه الشاب طالب الهندسة وحيد أبويه، صعُب حينها على فارس أن يرى والديه؛ فتخبأ عنهما طيلة اليوم، وحينما اقتربت الشمس من الموت، ذهب يودع صورتها المنطبعة على النيل ومعها يودع صديقه، يقف صامتًا قد رقت عيناه بالدمع، وبعد أن طالت وقفته تلك استمع إلى صوت صراخٍ حل قريبًا منه، فالتفت نحو مصدره فإذا بألسنة النيران تلتهم أحد البيوت وتنطبع صورتها على النهر، وجد سيدة تصرخ على وليدها والنار تمنعها من أن تنقذه، أسرع هو إليه يحاول أن يمنع عنه الموت في محاولةٍ يائسة، لكن كيف بعد أن رسخ في ذهنه أن إرادة اللّه لا مانع لها، فلا مفر من قدرك إلا لقدرك وفي الآخر نقف مكتوفين أمام مشيئتك ياللّه.

فجلست راحيل مكتوفة الأيدي بجانب حياة، وهي تقول:

- كأنه كان حاسس أن عمره مش طويل، بس يفيد بإيه طول العمر أو قصره ما دامت الفرص واحدة ودرجة الاختبارات واحدة... حتى لو اختلف الابتلاء.

تبسمت ساخرة، وأكملت بعد أن هزت رأسها عجبًا:

- صحيح الواحد مش بياخد من الدنيا أكتر من نصيبه... لما وصلي الخبر انصدمت ومصدقتش، لكن بعد شوية خطرت في عقلي فكرة عجيبة غريبة حسيت إنها ملخص الدنيا وملخص الروح وإن الروح بتتنقل من إنسان للتاني، وإن اللي حصل ده أمر طبيعي وده وقته... واحد يموت والتاني يتولد جه يحيى ومات فارس، غريبة الحياة وكل لما نحاول نفهمها بنغوص في بحر أبدي من الغموض والحيرة، لكن الإيمان بيفضل هو الخشبة اللي بنرتقي بيها عن كل خوف... ويأس... وحيرة، وأكملت وهي تسرح ببصرها:

- دلوقتي فهمت معنى الإسلام، كانت مدرسة العقيدة بتقولنا واحنا في الحضانة انه هو الاستسلام لأوامر الله ومفهمتش وقتها المعنى، ولما كبرت ثورت على المفهوم ده، يعني إيه استسلام مجرد من أي لحظة تدبر، تفلسف، نقاش مع النفس... لكن دلوقتي فهمت وعرفت أن الاستسلام أفضل من أي شيء تاني ، فيه الراحة والأمان، لأن كله بإيد ربنا، وسبحانه الرحمن الرحيم بيقدر الخير، ولم يطلب مننا الاستسلام في كل وقت مكنش لشيء إلا لخوفه على خلقه من الشداد واليأس والوقوع في دائرة لا نهاية لها من الحيرة، نتدبر آياته لكن منغوصش في حيرة سرمدية منعرفش وصلنلها امتى، امتى نخلص منها.

قالت حياة وكأنها تزيح عن صديقتها عبئًا:

- سرحتِ بعيد جدًا يا راحيل، الموت موجود في كل لحظة... إيه اللي خلى الكلام ده يجي في عقلك دلوقتي؟!

قالت في وجوم:

- ممكن عشان دي أول مرة حد يموت فيها من أهلي بعد أبويا وأمي، بدأوا ينقصوا واحد ورا التاني، ومش بعيد أحصلهم يا حياة، المرض اتمكن مني في فترة وبعد كده تلاشى كأنه مكنش، عشان يتحقق تفسير جديد من تفسيرات الخلق اللي مش بتنتهي، وهي إن الواحد لما يُشفى من البلاء ويظن أنه امتلك الدنيا وكل اللي حواليه يطمنوا عليه، يرحل من غير إنذار... وفجأة كل شيء ينتهي، أكملت وهي مكتوفة الأيدي:

- وتيجي تسألوا وقتها فين راحيل، رفعت كتفيها في استسلام:

- مفيش راحيل...ده أنا كنت معاها إمبارح... لكن هي اتبخرت النهارده، هنروح فين وبنيجي من فين أسرار... أسرار.

قالت حياة في حكمة تعودتها من راحيل ومن زوجها مهدي:

- ليه اليأس ده؟ كله بيموت وإن اختلف الميعاد، بس منقدرش نعيش وإحنا الرعب ملكنا، والخوف في كل لحظة بيدق بابنا.

قالت في مرارة:

- دلوقتي فهمت كلام صالح اللي قالهولي في المستشفى عن الأمان اللي ممكن نلاقيه في أحلك الظروف.... ولا يأس ولا خوف دلوقتي في كلامي، بالعكس دي أكتر لحظة أمان بعيش فيها، مش باقية على حاجة، ومش قلقانة من حاجة، كله محصل بعضه، اللّه يرحمه ويثبته في اللحظة دي، هو ده اللي بخاف منه، اللحظة اللي يلاقي فيها الإنسان مجهول... ومش بإيدي حاجة أكتر من الدعاء... ادعيله يا حياة.

وخيم الصمت على مجلسهم إلا من التمتمات التي باتت تتناثر هنا وهناك ويخترقها صوت الشيخ المنشاوي، وهو يرتل آيات اللّه في خشوع:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَٰذِهِۦ

سَبِيلِيٓ أَدۡعُو إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١١٠) لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (١١١)

خارج البيت يجلس صالح مستقبلًا من تسابقوا لتقديم واجب العزاء من أهل البلدة، ثم يجلس على مقعده شاردًا يسرح بعقله أحيانًا متذكرًا ما كان بينه وبين فارس، حتى تذكر ما كان بينهما في إحدى المرات العام الماضي في أثناء زيارته لأسوان، جلسا بالقرب من النيل قبيل الشروق بعد أن فرغا من لقاء الجيوشي، فتساءل فارس، قائلًا:

- هو أنت اتعرفت على راحيل إزاي؟!

أجاب ببساطة:

- زميلتي في الجريدة.

ضحك ساخرًا:

- مش القصد، يعني عرفتها إزاي للدرجة اللي تخليها تتقبل إنك تروح معاها عند الجيوشي بغض النظر إنها نامت ومرحتش، وإني رفضت إنها تشوفه.

أجاب متلجلجًا:

- ولا حاجة، بالعكس راحيل معاملتها صعبة، فلسفتها غريبة، تخليك تفكر مليون مرة قبل ما تتكلم معاها، وأحيانًا تبقى عادية جدًّا تشك إنها راحيل صادق الكاتبة المعروفة وكأنها طفلة.

- حياتها مكنتش سهلة يا صالح... موت أبوها وأمها كان بمثابة جرح بقلبها بينزف مع كل خسارة وخيبة أمل أو فراق.

تساءل مندهشًا:

- ماتوا! من امتى؟

- من خمس سنين، حادثة طريق في العراق .

- هما كانوا شغالين هناك؟

- آه، أخويا صادق كان مدرس تاريخ ونجاة مراته برضه أستاذة بس رياضيات، ومن وقت لما ماتوا وراحيل اتعقدت من العراق ومن التدريس وحاجات كتير متقدرش تكلم عنها وهي موجودة، ثم صمت برهة، وأكمل سيره، قائلاً:

- ورثت مني الخوف من الموت، عشان كده مخلتهاش تقابل الجيوشي.

وحتمًا الآن قد زادها ما كان لفارس بحزنٍ عميق من الصعب أن تشفى منه، هذا ما تبادر لذهن صالح حينما عاتب الأيام التي لم تمهله حتى يتحقق من صحة شعورها نحوه، وكأنّ هناك حاجزًا حال بين صالح وبين راحيل، حال بينهما القدر من قبل وأبى أن يبوح صالح بما في قلبه، فكتمه واستسلم لوابل من الأحلام التي لم تفارقه منذ أكثر من عامين مضوا بين تذبذب ذلك القلب في تفسير ما حل به أكان حبًّا أم مجرد حنين، وعندما تأكد له حبها، انتظر لمدة طويلة أن يخيب ظن الجيوشي وأن لا يصيبها مكروه، وعندما أصابها المرض الخبيث تأكد له قول الجيوشي لكن الآن قد علم أنه أخطأ عندما حَمل حديث الجيوشي معنى الموت، فتعافت راحيل، ومات فارس.

بعد أن شق سكون الليل دقات الساعة العاشرة، وخلى البيت ممن استبقوا لتقديم التعازي، توقف صالح على بعد أمتار من باب البيت وأخذ يراقب ببصره راحيل الواقفة مع صديقتها حياة.

- خلاص حا تمشي؟

هزت رأسها في أسف، وأجابت:

- بكرة مسافر مع مهدي .

قالت راحيل في تأثر واضح:

- يعني مش هشوفك تاني، ولا أتكلم معاكي... احنا مفترقناش بقالنا سنين، من اليوم اللي رجعت فيه من السفر ولقيتك ساكنة البيت... لما أحتاج أتكلم مع حد كنت بجري عليكِ وأخبط بابك اللي عمره ما اتقفل قدامي، مين دلوقتي حا يشجعني ويقرأ كل مقال قبل ما أنشره؟ ... مين اللي حا يحمسني؟

ببساطة أجابت:

- جواباتي ...

- عمرها ما هتكون إنتي، مش هتنقل تعبيرات وشك، ونبرة صوتك، وردود فعلك الغريبة المبهجة اللي بتحلي أي حاجة مهما كانت.

قالت وهي تخفف عن راحيل:

- لكنها وسيلة، اقري الجوابات وتخيليني قدامك بكلمك، وبنضحك، وبنهزر.

- لو كان الخيال كافي مكنش الحزن ملأ قلوبنا مع كل لحظة فراق، لكني حاحاول، ولو مقدرتش حادور لحد لما أوصل لصورتك، طالما طلبت شيء وأنا على ثقة بأنه حايتحقق يبقى حايتحقق ولو بعد حين، ثم أضافت بخفة أخفت بها الأحزان المتراكمة:

- بس حَسني إنتي أسلوبك في الكتابة عشان أقدر أعيش مع كل موقف حاتمري بيه.

- حاحاول... وهحاول كمان أكلمك في التليفون مع إن المكالمة هتبقى دولية، لكن أمري لله، و لما أضطر أبقى أكتبلك جوابات مع إن عمري ما كتبت جواب.

- طب امشي عشان تلحقي توصلي القاهرة قبل ما مهدي يزعل، وسلمي عليه لإني مش حاقدر أودعكم بكرة، ثم شدت على يدها، وقالت:

- متأخرتيش عليَّ وجيتي في أول طيارة من القاهرة مع أنك مسافرة بكرة العراق، مش عارفة بعد لما تمشي ألجأ لمين... وأكملت في حزن:

- الكل بيروح وأنتِ كمان أهو، وكأن الفراق هو المكتوب.

استدارت حياة نحو الباب، وقالت وهي ترمق صالح بنظرها:

- بس في واحد واقف عند الباب مستني يشغل الفراغ اللي بقى بعد فارس، وحيبقى موجود بعدي.

هتفت راحيل باسمة بصوتٍ رنان:

- صالح.

قال وهو يتجه إليها:

- نعم صالح.

ثم توقف عن التقدم، وقال:

أظن أن دي الفرصة اللي لازم أصارحك فيها، سكت وكأنه يستجمع شجاعته..

ثم أكمل:

- أنا خطبتك من فارس وقت ما قابلته هنا من سنة، وافق لكني رفض إنه يقولك إلا لما أتأكد من شعوري وشعورك، كنت متذبذب لكني أتأكدت من شعوري وقت لما اختفيتي،وزي ما وضحتلك في الجواب اللي بعته مع حياة، ووقتها برضه مقدرتش أصارحك، خفت تخاطي بينه وبين الشقة، لكن دلوقتي مفيش أي مجال للشقة بس الظروف متسمحش... لكني حاتكلم وأنا واثق أن ده عمره ما كان حايزعل فارس، ولو كان قادر على إنه يسمعنا دلوقتي أظن أنه مش حا يزعل، بالعكس حايفرح.

تنهدت، قائلة:

- ولا حا يزعل ولا حايفرح ولا لحد العلم بشعوره، دلوقتي الدنيا هانت في نظره لدرجة إن اللي بتقوله ميفرقش معاه، وبالرغم من أي حاجة قولتها أو حاتقولها أنا موافقة، أكيد الأحلام اللي بدأت تزورنا احنا الاتنين مكنتش من فراغ، ولا القدر اللي بدأ يشبك بين ظروفنا كان عبث، احنا ماشيين في الدنيا بتدبير دقيق أي خلل فيه حايأثر على مستقبل كتير مش احنا بس، حتى لو الخلل برضه مدبر ورفضي أو قبولي تدبير، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وأردفت:

- أنا موافقة يا صالح.

وانصرفت عنه نحو هناء الجالسة بغرفتها جسدًا في حين أن عقلها يستعيد ما كان بينها وبين فارس، لقد كان مسكنها

وملجئها، لم يخيل إليها رحيله في سن مبكر تاركًا طفلهما الذي تلهف قدومه لأكثر من عشر سنوات، استغرقت هناء في إغفاءةٍ مملوءة بخليطٍ مشوش من الأحلام، هبت منها مهمومة، تعسة، تستعيد صورته الأخيرة داخل المستشفى حيث كان يجلس فيها مريضًا بعد أن كان هو الطبيب، أحرقته ألسنة النيران وهو يحاول إنقاذ الرضيع، نجا الرضيع وأضحى هو الجريح... أكان له العلم منذ اللحظة الأولى التي استقر فيها بأسوان أنها ستصبح له اللحد، أم إنه أدرك تلك الحقيقة الآن، فجلس بجانب عامر، وقال ضاحكًا:

- هو أنت كنت عارف واحنا قاعدين بنلعب الشطرنج في المستشفى إننا حانفارق الدنيا في يوم واحد؟

- عرفت دلوقتي يا دكتور.

قال ضاحكًا:

- طب كمل لعب

ثم أردَفَ محذرًا:

- خليك واثق إني أنا اللي حاكسب، ومفيش مفر مني هنا.

رد عامر بلهجة مرحة:

- إذا طلبت العلا... أطلب الجنة.

(١٢)

ترَى مالذي كان يدور في ذهنها وهي جالسة بالقرب من النهر، عيناها تكاد تفيض دمعًا، وقلبها حائر، كانت الشمس تهوي في الأفق ولا خيط، ولادليل، ولا أثر يقودها إلى خارج تلك المدينة، تزداد حيرتها أينما سارت، فلا إنسان ولا حيوان، مدينة فارغة ودت أن تطلق عليها مدينة الموتى، لكن لم تقوَ أن تنطق بها، فلا أثر فيها يدل على وجود سكان لها من قبل، مجرد أرض خضراء يتوسطها نهر صغير جارٍ، وشمس دافئة استقرت في كبد السماء، ظلت مستسلمة لذلك الوضع حتى سمعت صوتًا يناديها، قائلًا:

- راحيل.

- مين؟

عاد الصوت الساحر، يقول:

- راحيل... راحيل.

رددت راحيل في ذهول:

- أمي!

ظهرت في تلك الأثناء امرأة ترتدي ثوبًا زهريًّا مزركش كثيرًا ما أحبت أن ترتديه في دنياها، وقالت:

- نسيتي صوتي؟

أجابت بصوتٍ بريء مرح:

- إزاي أنساه؟ لو نسيه عقلي...قلبي عمره ما هينساه.

أكملت معها السير، فتساءلت راحيل دون اهتمام:

- متّي ولا لسه عايشة؟

أجابت وهي تضمها إليها وتقبلها:

- لسه عايشة.

- طب بشوفك إزاي؟

- بقلبك.

صاحت في ذهول:

- إزاي؟

- لإنك محاولتيش قبل كده إنك تشوفيني.

- وإيه اللي جد دلوقتي؟

- إنك اتمنيتي وبالتمني كل شيء بيتحقق... مش ده برضو كلامك يا راحيل؟!

- يعني وقت لما أحتاج أشوفك حاقدر؟

قالت بثقةٍ:

- طبعًا.

أخذت تتلفت حولها في دهشة، وهي تقول:

- وبابا؟

ظهر في تلك الأثناء رجل طويل القامة، خمري اللون، باسم الوجه، يرتدي زيه الذي كثيرًا ما أحب أن يرتديه قبل وفاته، وقال:

- أنا هنا.

نظرت إلى أمها ، وقالت في دهشة:

- طب إزاي؟...يعني مجرد ما نطقت اسمه لقيته.

أجاب صادق، وهو يتجه نحوهما:

- طالما كنتي صادقة في طلبك حايتحقق اللي عايزاه، بشرط إنه يكون متوافق مع إرادة ربنا.

قالت بفرح:

- يا سلام... سهل إني أشوفكم بعد كده.

سرعان ما عدلت عن سعادتها، بعد إن سمعت صوت صالح يناديها ، فقالت:

- مضطرة أرجع لصالح، وبكرة أحاول أشوفكم تاني.

ثم نظرت إلى ما حولها من فضاء، وقالت:

- حارجع إزاي دلوقتي؟

أكملوا الطريق وراحيل تتوسطهما، حتى توقفت بالقرب من النهر ونظرت في صفحته، وهي تقول:

- مفيش غيره ممكن يربطني بعالمي، ثم استدارت لأبيها، وأردفت:

- ولا أنا متهيألي؟

أومأ برأسه، وهو يقول:

- أيوه، بس استني لأن النهر الهادي ده حاتيجي منه موجة هتاخدك لعالمك.

وحينما كانت تنتظر اندفاع المياه، قال لها أبوها:

- عندما تشتعل بكِ مشاعر الإيمان، اعلمي حينها أنكِ على شاطئ الأمان، يصيبك الأمان حينها وتتمني أن تظلي كذلك طوال حياتك، لكن سرعان ما تجرفك الحياة إلى نهرها، ويتلاشى أثر رمال الإيمان بفعلها، وحينما يجف النهر ستجدي نفسك على شاطئ الأمان ولن تستطع مياه الحياة أن تجذبك مرة أخرى إليها، فعندما تستمعي إلى تسبيح الرمال اعلمي إنكِ على شاطئ، الأمان شاطئ الإيمان، أصابها الذعر، وقالت:

- إيه ده؟!

- حكمة، فاكرة إنك لوحدك الحكيمة.

- طب أنا أهو ومفيش حاجة حصلت .

أجاب أبوها:

- بيقولوا يا بنتي، "عندما تبدأ السير ستجد الطريق".

حدثت نفسها بصوتٍ واضح، قائلة:

- سمعتها فين دي قبل كده؟

أجاب أبوها مبتسمًا:

- المنام يا راحيل عبارة عن جزء من الواقع، ومتقدريش تشوفي أو تسمعي عن حاجة غريبة عنك فيه، يعني كل اللي بيحصل ده إنتي شوفتيه قبل كده وسمعتيه متفرق، وفي أحلامك جمعتيه كأنه قصة.

أومأت له برأسها، وتركت أيديهما واتجهت نحو النهر، ثم استدارت نحوهما تلوح لهما بيدها، وقالت:

- مش هتأخر عليكم استنوني.

لاحو بأيديهما مودعين، وقالت أمها:

- مستنياكي يوم الأربع.

فتحت عينيها بثقل، بدأت تجوب بعينيها غرفة بيضاء في المستشفى الذي ذهبت إليه كي تضع فيه وَليدها مروان في العام الثاني من الألفية الثالثة، أول من رأت عيناها من بشر كان صالح الذي وقف بالقرب من فراشها، وقال باسمًا:

- حمد الله على السلامة.

بادلته البسمة وذهبت بعقلها إلى حيث المنام، وتساءلت:

- هو أنا قعدت قد إيه في العمليات؟

جلس بالقرب منها، وهو يقول:

- يهمك في إيه؟

- بسأل عادي... ما أنت عارف إني بحب أبقى حاسة بالوقت.

- يعني عمالة تكلمي ومسألتيش إذا كان المولود ولد أو بنت...

لم يطل به التساؤل، فقالت راحيل:

- اللي يكون، حتى لو كان فار.

رفع حاجبيه عجبًا، وتساءل:

- اشمعنا فار؟

- دي قصة كانت بتحكهالي حياة سمعتها من ست عجوزة في غرب سهيل.

ثم أردفت، وبصوتها رنة اشتياق:

- وحشتني، بقالي فترة معرفش عنها حاجة!

شغلتها حياتها الجديدة عن راحيل وعن مصر، كانت في بداية الأمر مبهورة بما ترى وتسمع حتى أضحت واحدة من أهل الوطن الجديد، شعرت بمعاناتهم، وقاسمتهم أحلامهم.

في صباح اليوم التالي، بدأت الشمس تسطع في هدوءٍ ودفء في أركان حديقة بيت مكون من طابقين، واسع البناء بإطلالته على الشارع العام، تغطي شجرة الياسمين سطحه لتغمر الحديقة برائحتها الذكية، جلست حياة في إحدى أركان الحديقة متربعة وبجانبها طفلين تتراوح أعمارهما بين الخامسة والسادسة، التفتت إليهما، وقالت ببسمة متكسرة:

- شتحبون أحجيلكم اليوم؟

قال أكبرهما وهو قصي:

- قصة تكون طويلة.

قالت وهي تقلب نظرها نحوهما:

- راح أحجيلكم قصة اسمها الفارة بروكي.

- شنو يعني؟ فارة الها اسم!

قالها حميد ساخرًا.

فأجابته بقولها:

- وأنت مو عندج أرنب اسمه شمس.

علت ضحكته الطفولية، وقال:

- نسيت هالشي.

ثم أكمل هامسًا:

- بسرعة قبل ما أمي تستعجلي حد أكل.

بدأت تسرد:

- من زمان جان أكو واحد اسمه الشيخ صالح وزوجته الست سلمى، مجان عدها أطفال، ومرة من المرات دعت سلمى وكالت يارب أنطيني أي شي حتى لو جان فار... ربنا تقبل دعوة سلمى ورزقها بفار، استغربت ولما الشيخ صالح عرف كاللها هاي دعوتج، ولازم تربيه ممكن يكون أحسن من الابن، ربوه وكبر بس مكبر هوايه بس كم سإنتيمزمان.

حاولت أن تقرب مقصدها لهما، فرفعت إصبعيها السبابة والإبهام بشكل متوازي بضعة سنتيمترات، ثم أردفت:

- مرة من المرات مال لأمه وكال يا أمي بنفسي أني أخذ الأكل لوالدي بالمزرعة، كالتله شلون حتعرف تشيله وهم المزرعة بعيدة كلش، بعد فترة قصيرة راح لامه وكاللها تعالي بسرعة، راحت ويا لحد باب البيت وشافت المطي كدام البيت، راح بروكي الفار وكف ين أذن المطي وكله تعال يمين، اتجه

وقتها الحمار (يعني المطي) يمين وكله اتجه شمال، وهم نفذ الحمار أوامره، نزل بروكي من على أذنه، وكاللها: - شنو رايج يا أمي؟

قاطع حميد قولها:

- هو الفار يحجي؟

سكتت عن الكلام للحظات، ثم قالت:

- القصة مو حقيقية مثل كارتون سِمبا.

قال:

- فهمت هسه... كملي القصة وأني ما راح أحجي، ثم وضع يده على فمه وهو مغرق في الضحك، أكملت حياة قولها بعد أن جذبت حميد لأحضانها:

- وفقت سلمى ودزت الأكل ويا بروكي ...الطريق للمزرعة جان خطير مليان بالعقارت والحفر، لكن جان أكو خطر أكبر وهو العصابة اللي جانت منتظره عند أطراف البلد، جانوا كاعدين يخططون لسرقة قرية بروكي اللى أن شموا ريحة أكل طيبة، باوعوا لكوا مطي شايل خشبة عليها أكل وشرب وماكو أحد، لأن بروكي جان صغير كلش وماكو شخص شافه، وبهاي اللحظة صاح بروكي بصوت عالي كلش رغم صغر حجمه، وقتها أهل القرية أسرعوا لهناك وضربوا الحرامية، جبير العصابة عصب من اللي صار وبحث عن صاحب الحمار وعرف صاحبه هو الشيخ صالح، فات جبير الحرامية

للقرية هو والحرامية وخلو علامة على بيت الشيخ صالح حتى يميزون البيت بالليل، بروكي الفار شاف الحرامي وهو يخلي علامة، راح من وره الحرامي إلى أن وصل للعصابة وسمع خطتهم إنهم حيبوكون البيت الفجر، رجع للبيت و كال لأبو وأمه اللي صار، وطلب من أبوه الشيخ صالح يحضرله سبع بسامير حاطهم بكاسه بيه نار بليل ع السطح، الشيخ صالح نفذ الكلام، وبليل كاعد بروكي يم البسامير وهيه تصير كلش حارة ولونه صار أحمر، وبالفجر صعد أول حرامي للسطح فحركه بروكي بالبسمار ع ركبته، صعد الحرامي الثاني وحركه بروكي ببسمار ثاني والبقية هم، إلى أن صعد جبير الحرامية وجان باقي بسمارين فحركه بروكي بالاثنين وبقه عنده علامتين مو علامة وحدة مثل الحرامية..

جبير الحرامية فكر إنه يكول لقاضي المدينة إنه عابر سبيل واشترى من الشيخ صالح بيته، بس الشيخ صالح نصب عليه، وكال للقاضي الدليل إني اشتريت الكاع والبيت خمسة شهدوا لمن اشتريته منه.

حدقت حياة في الطفلين، وهي تقول:

- الخمسة ذوله جانوا باقي الحرامية، صاح القاضي الشيخ بهاي اللحظة، كال بروكي لأبوه الشيخ صالح عوفني أدافع عنك

كدام القاضي... دخل بروكي للقاضي وكال حدافع عن أبويه، كال القاضي:

- احجي يا بروكي.

كال بروكي:

- اللي كدامك ذوله خدم عدنا وجبير الخدم هو الشخص اللي بيدعي، والدليل على كلامي إنو كل شخص من الخمسة لديه علامة بسمار بركبته عدا كبير الخدم (وأشار للتاجر) عنده علامتين... القاضي حكم إنهم يرجعون للشيخ صالح ويخدموا في أرضه طول العمر، بوكتها ربنا عوض الشيخ صالح بدال الابن ستة يشتغلون بدون فلوس، وجان فرحان كلش ببروكي، وكعد ويا تحت ظل الشجرة يشوفوهم وهمه يشتغلون بالأرض..

في عصر ذلك اليوم كان طفلها راكان يجلس بداخل البيت، لم يكن تجاوز عامه الأول حينما كان يعلمه والده الحركة، فقال مهدي الجالس على الأريكة القريبة من التلفاز، وهو يشير لراكان بحماس:

- راكان تعالى ... تعالى.

استجاب ذلك الطفل صاحب الخطوات المتثاقلة وألقى بنفسه بين أحضان أبيه، نظر إليهما قاسم الجالس بجانبهما، وقال لمهدي بلومٍ بلهجته الفصحى:

- لعلك تمتنع عن التدخين لأجل راكان.

أجابه في يأس، وهو يطفئ سيجارته الموضوعة بين يديه:

- ما أكدر، الخوف والقلق يدفعني اله.

- من شنو خايف؟

أعاد رأسه للوراء، وهو يقول:

- من الوضع بالمنطقة، ما أدري لوين رايحين.

- إصابتك في ثعلب الصحراء خوفتك من المستقبل.

- مو بضبط، بس حسيت هاي بداية أحداث جديدة راح يعاني منها شعبنا الطيب.

ربت على كتفه، وهو يقول:

- لا تخاف، وحده الله كادر أنه ينجينا من أي كرب.

استمرّ الحديث بينهما لمدة طويلة من الوقت انتقلت خلالها حياة لمساعدة نوار في تجهيز الطعام، تنوع حديثهما بين الفن والرياضة، وكان آخره الحديث عما آلت إليه الأوضاع في العراق خلال السنوات الأخيرة بعد صفقة "النفط مقابل الغذاء".

صمتا عن الكلام عندما نقلت شاشة التلفاز صورة حية لإحدى الأبراج الضخمة تتصاعد من أعلاها أدخنة متكاثفة، تساءل مهدي في أدغال عقله، قائلًا:

- من أي بقعة بأرض الله تنقل تلك اللقطات؟ وما الشيء الذي سبب كل هذه الأدخنة المتكاثفة؟ حينها أسرعت حياة نحوهما، وهي تقول:

- أشنو اللي صار وخلاك تعيط بصوت عالي يا مهدي؟

لكنها لم تنتظر إجابة وحدقت نظرها هي الأخرى نحو التلفاز.

في مدينة(نيويورك) إلى الغرب من المحيط الأطلسي، صباحًا وفي الساعة التاسعة وبضع دقائق، اصطدمت طائرة مختطفة من شركة الخطوط الأمريكية المتحدة بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي، فأحدث الاصطدام فجوة كبيرة بالبرج أدت لانهياره كما هو موضح على شاشات التلفاز، وقد سبقه بعشرين دقيقة اصطدام آخر لطائرة مختطفة في أعلى البرج الشمالي، لم تتوفر لهم هذه المعلومات حينها وأقصى ما كان لديهم من معلومات هو الدمار والخراب، انهار مهدي على أقرب مقعد ، وهو يقول:

- وهاي بداية شي مجهول راح يعاني منه الشرق ويتهمون باللي صار.

قال قاسم:

- توقع الخير.

أضافت حياة في يأس:

- القلق راح يكتلنه... الله يستر وتمر الأحداث على خير.

تركتهما وذهبت دون أن تزيد القول، فاستدار قاسم لمهدي وهز رأسه في يأس، وهو يقول:

- ظنيت أن حياة راح تشفيك من قلقك وخوفك بمرحها وتفائلها، بس بقيت أحس إنها مثلك، صارت تحجي مثلك، مخاوفها مثل مخاوفك، عبالك هيه عايشة وياانه من زمان.

فلم يملك إلا أن يجيبه، قائلًا:

- وأني مثلك... حسيت إنو حتغير وياهه، بس هيه اللي تغيرت، بدأت تحب القراءة بالسياسة والتاريخ، خلصت مجموعه البداية والنهاية لابن كثير بعام واحد، تصدك طلبت مني تتعلم ضرب الرصاص حته تكدر تحمي ابنها إذا صار شي.

فلقد دفعها الخوف لطريقٍ كثيرًا ما رفضته نفسها المُسالمة، فصدق قول مهدي حينما أخبرها بأن للطبيعة تأثيرًا في تشكيل هويتنا، لكنها علمت أن أساس ذلك هو الخوف، فالمصري القديم كان في أغلب أحواله مسالمًا لا يخاف ضياع ما يملكه بعكس من كانت طبيعة بلاده قاسية تسلبه ما أراد، فكان الخوف هو الأساس، أتعبها ولم يكن أمامها سبيل للأمان سوى القسوة والجفاء على رغم تظاهرها بالمرح، لكنّ شيئًا ما تغير بداخلها، صارت تتحدث مثل مهدي، وتفكر كما يفكر، حتى مخاوفهم باتت واحدة، لم يخيلّ إليها قبل ذلك أنها ستصل إلى ما هي عليه الآن، فأمست تجاذب مهدي أطراف حديثه عن الصراعات وتوازن القوى ومستقبل الشرق وغيرها من الموضوعات بعد أن رزقها الله براكان، لتجبها الأيام عن السؤال الذيكثيرًا ما سألته لوالدها، وهو سبب رفضه لمهدي،

وكلما كان قوله الخوف استهزأت بمخاوفه، أما الآن فقد انتقل إليها شعوره، أعماها حبها لمهدي عن الواقع، ولا تقوى على الندم، فهي مازالت تحبه وبمرور الأيام يتضاعف ذلك الحب بعد أن غير كيانها وبدلها من حياة الفتاة المرحة المنطلقة إلى ما صارت عليه الآن، وكانت تلك معجزة الحب، وماذا تعني تلك العاطفة عند أهل المحبة؟ ربما كانت هي التخلي، وإن كانت فعمَّن نتخلى؟ ولِمَ؟ومتى؟ فالطريق لمعرفة تلك الحقيقة سرمدي لا علم لنا ببدايته ولا نهايته، فلا تهم البداية ولا النهاية، لكن أتساءل عن الحال... حال أهل المحبة، قادرون هم على العودة من الطريق الذي بدأوا السير فيه؟ وإن كانت لديهم القدرة، فكيف ذلك بعدما خربوا كل ما هو فاني؟

انتهت راحيل من تسجيل تلك الكلمات بالدفتر الخاص بها، وتركته على المنضدة التي يستند عليها تمثالها الذي اختلسه صالح منذ بضع سنوات، ثم أسرعت إلى صالح تناديه بصوتٍ عالٍ:

- بسرعة يا صالح عشان تلحق التسجيل، مش من أول يوم تتأخر.

اليوم هو أهم الأيام بالنسبة إلى صالح، بداية طريق الأضواء، سيتحول من مجرد إمام مسجد شهير وكاتب في جريدة القارئ إلى ضيفٍ دائم في إحدى البرامج الدينية التي بدأت في

الظهور مع بداية الألفية الثالثة، تلك التي قال عنها المنجمون من قبل بأنها نهاية العالم، ومر حتى الآن عامان منها والعالم مازال قائمًا، لكن الأحداث بدت متسارعة متصارعة وكأنها تسطر النهاية .....فإلى أين نحن ذاهبون؟ ومالذي تحمله الأيام القادمة، فالإجابة التي تخرج من أفواهنا واحدة:

- "لا ندري".

نظن بأن التاريخ يتكرر لكنه لم يكن كذلك، فأخطاء الإنسان هي ما تتكرر، قالوا قديمًا لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين لكننا تعودنا اللدغ، أكذب القدماء القول؟ أم فقدنا نحن إيماننا وألقت بنا أقدارنا في دائرة التناسي؟ نتناسى حتى ننسى، وعندما يغمرنا الخوف نفر إلى الله، حتى تعودنا التناسي والفرار وكانت حياتنا محصورة بينهما، فهل وصل الحال بأن تتناسى هناء زوجها فارس؟ لا، لم تنسه، وباتت صورة ابنهما تذكرها به بين الحين والحين، فرت من أسوان وهي تحاول أن تتناسى القارعة التي حلت بها يوم وفاته، واستقرت مع نجلاء التي أضحت وحيدة بعد زواج راحيل وانتقالها إلى بيت صالح، جلست هناء بجانب نجلاء في البيت الساكن بعد أن نام يحيى، وقالت:

- النهارده الثانوية التانية لفارس.

أجابت نجلاء في تأثر شديد:

- الأيام بتجري وبتاخد من عمرنا...اللّه يرحمه كان من أحسن الناس اللي شوفتهم في حياتي ... وسبحان اللّه مات يوم ميلاده.

أجابت هناء بحسرة:

- يعني كان زمنا دلوقتي بنحتفل بعيد ميلاده الأربعين بدل ثانويته التانية، أتمنى من ربنا إنه يحسبه من الشهداء.

قالت نجلاء في عجل:

- إزاي حاجة زي دي مخطرتش على بالي؟

تنهدت هناء، قائلة:

- خير يا أم سعاد؟

قالت نجلاء بصوتٍ رنان:

- فكرتيني بسعاد.

أجابتها هناء:

- كلها شهرين و ترجع من السفر

ثم تساءلت باهتمام:

- كنتي هتقولي إيه؟

- أخاف أفكرك وتزعلي.

- بخصوص إيه؟

- عن طريقة موت فارس.

بتألم واضح:

- امتى نسيت عشان كلامك يفكرني.

قالت نجلاء في جزع:

- مش غريبة برضوإنه يموت في حريق، وأخوه صادق وأختي يموتوا في حادثة والعربية تتحرق بيهم.

أجابت هناء بلامبالاة:

- صدفة.

قالت بسخرية تحتشد بالمرارة:

- راحيل مبتحبش كلمة الصدفة، بتقول إن كله تدبير.

سرحت هناء ببصرها، وقالت:

- راحيل، تصدقي إنها بقت غريبة اليومين دول، مقالتها حزينة ونظرتها، كل حاجة بقت فيها غريبة، فكرتني بفارس في أواخر أيامه كان دايمًا حزين.

- هي طول عمرها راحيل كده، بتعدي عليها أوقات حالتها بتبقى غريبة، متقلقيش عليها.

كست ملامحها مرارة لا تكاد تفارقها، وفي عينيها دمع يكاد أن ينهمر في أي لحظة، فإلى أين ذهبت حيويتها وسعادتها؟ سلبتها الحياة منها أم إنها هي التي سلبت من الحياة ما تمنت؟ صارعت الأقدار بعد وفاة والديها وبدأت في المواجهة، كل ضربة جديدة تزيدها قوة، فانتصرت على المرض وتخطت حزنها على فارس، لكنها الآن بدت شبه مستسلمة بعد أن علمت أنها مهما واجهت الأقدار فحتمًا وفي الآخر ستنتصر الأقدار، فكانت أقوى منها ونجتها من مرضها الأول وبدأت

تمنحها شيئًا فشيئًا ما سلبته منها من قبل، على رغم ذلك أضناها الحزن دون أي سبب، بعد أن تأكدت بأن الإنسان يفر من قدر الله إلى قدره، فكم من مرة تكررت تلك الكلمات على مسمعها، لكنها وللمرة الأولى تتدبرها، فكانت في الأيام الأخيرة شاردة، جلست بجانب صالح في السيارة لا تحرك ساكنًا، حتى سألها صالح:

- راحيل، مالك سرحانة، في إيه؟

استدارت نحو نافذة السيارة، وقالت بصوتٍ ضعيف:

- مفيش، بتفرج على الطريق.

تساءل في شيءٍ من التباهي:

- عجبتك الحلقة؟

التفتت إليه وقالت بسرعة، وكأنها تتجاهل كل شيء:

- عايزني أقولك إيه؟ عشان مندخلش في جدال طويل... شوف أنت عايز تسمع إيه وأنا أقولك.

قال مندهشًا:

- ورأيك فين؟

- زمان كنت بتحب تسمعه، لكن دلوقتي بقيت تتضايق من أي نقد بقوله.

- اللي إنتي بقيتي تعمليه يا راحيل اسمه نقض مش نقد، وعلى أي حال قولي أنا سامعك.

- أنا لو اتكلمت هتكلم عن فكرة البرنامج بشكل عام مش الموضوعات اللي بتناقشها في الحلقة.

قال مستفسرًا:

- ليه؟

- خايفة لتاخدك الشهرة لطريق تاني صعب إنك ترجع منه

- بس اللي أنا بعمله اسمه دعوة.

قالت في نبرة طبيعية هادئة تنافي قسوة كلماتها:

- وهي الدعوة مينفعش تكون غير من خلال الشاشات.... الدعوة ممكن تكون في المسجد ....ترتبوا زيارات للمدارس، لكن برنامج وشو إعلامي في الدعوة صعبة شوية، لأن بتكون الفلوس هي المطلب الأساسي.

قال متسائلاً:

- يعني مقبضش على اللي بقوله؟

- مقدرش أقولك آه، لأنك لو اشتغلت ببلاش القناة مش هتعمل كده وحايكسبوا، ولو مش قاصد الفلوس هتبقى قاصد الشهرة.

- بس الشعراوي كان له برنامج.

- مش برنامج مخصوص فيه فواصل للإعلان عن منتجات، ثم هزت كتفيها، وقالت في رفض:

- محبتش فكرة إن الدين يبقى سلعة، وهيبقى كده لو بدأت في طريق الشهرة.

تساءل متفاخرًا:

- خايفة من إني أتشهر وأنساكي؟

قالت في غرور:

- عمرك ما حتنساني، حتى لو خدت متاع الدنيا... مش حتنساني.

قال وهو يشير إليها بيده اليمنى:

- أهو كلامك فيه غرور... مغرورة.

- مش غرور قد ما هو ثقة ويقين..

ثم حاولت أن تخفف من حدة النقاش، بقولها:

- حاسب بس لتعمل بينا حادثة.

- متقلقيش.

ثم عاد متسائلًا، في ثقةٍ منه بأنه ضيق الخناق على إجابتها المتسارعة:

- طب ما هو دكتور مصطفى محمود لحد فترة قصيرة كان له برنامج.

خاب ظنه بقولها:

- برنامج اسمه "العلم والإيمان"، يعني العلم هو الأساس وبيربط بينه وبين الدين، مش بيتكلم في قضايا في صميم الدين.

حاول الإيضاح:

- أنا ببسط الدين للي مش فهمينه.

- يعني بتقوم بمحل القلب عند الإنسان... أنت نسيت إن في حاجة اسمها استفتي قلبك وفي كمان الأزهر، يعني لو الإنسان وجهته مشكلة في شيء متعلق، ثم بدأت تعدد... بالمواريث... الصلاة... الطلاق وغيره يقدر يروح هناك، لكن لو أنت طلعت قلت رأيك وغيرك قال رأيه هنبقى بنلف في دايرة مفرغة، وفي الآخر اللي حايشك في موضوع وعايز إجابة واضحة حيروح للأزهر ويبقى وجودكم زي عدمه... يبقى وقتها المقصود من إنك تطلع على الشاشات إنك تبقى مشهور.

قال في سخرية:

- كلامك كله مبني على توقعات.

- توقعاتي مش من فراغ، هي مجرد رؤية للي حصل زمان.

- بخصوص إيه بالظبط؟

- ما أنا لو قلت المثال اللي في عقلي هتحصل مشكلة بينا.

قال مستنكرًا:

- هو إنتي ليه خايفة من أي مشكلة تحصل بينا؟ مع إنه الطبيعي إن في مشاكل تحصل.

- في أول مشكلة حاتحصل بينا حا تتمنى إنها مكنتش حصلت، ولو عايز تعرف المثال هقولك.... هما زمان قبل سيدنا نوح لما عازوا يتقربوا لربنا عملوا إيه... تماثيل تذكرهم فقط بربنا، وبمرور الزمن عبدوا التماثيل ونسيوا ربنا.

- قصدك إني بمرور الوقت حانسى الهدف الأساسي من البرنامج؟

ثم تساءل:

- عايز أعرف فين حماسك اللي كان قبل الحلقة.

- فكرت في الموضوع ووصلت للي بقوله ليك دلوقتي.

قال في حسرةٍ:

- بس لو مكنتيش توزني كل حاجة بعقلك كان زمانك حاجة تانية.

- أظن إن ده هو اللي حبيته في راحيل... إنها بتحسب كل حاجة كويس.

- زي ما قولتي من شوية، بمرور الوقت بننسى.

(١٣)

بمرور الوقت يُصيبنا الفتور وتفقد الأشياء بريقها، أكان للتعود اليد في ذلك؟ أم إننا ننجذب إلى كل ما هو غير مألوف؟ وعندما نتعود الشيء ننحيه جانبًا ونبدأ في رحلة البحث عن كل جديد ذي بريق في أعيننا، على رغم أن الشيء ذاته قد فقد بريقه لدى غيرنا، بدت راحيل في عين صالح شيئًا عاديًا، لم تعد تدهشه كلماتها وقل انجذابه نحوها، لم تكن حياتهما كما توقع الكثير من المحيطين بهما، كانت راحيل أشبه بالمسيطر على جميع الأحداث كما تعودت منذ صغرها، أما صالح فمازال يبحث عن أمه بعد أن تأكد له أن راحيل صورة جامدة لأمه لا حراك فيها، فلم ييأس وحاول أن يخلق أصل الصورة بيده، وفي أحد الأيام، قال لها، وهو يستعد للذهاب لتسجيل إحدى حلقات برنامجه:

- لو طلبت منك إنك متروحيش الجرنان بكرة، توافقي؟

- طالما أنت عايز كده، موافقة.

التفت إليها، وقال:

- بسهولة كده؟!

قالت دون اكتراث، وهي تسرع في ترتيب حجرة نومهما:

- مش حيضر يوم أجازة.

ضحك ضحكة صفراء، وقال:

- لأ، مهو أنا مش عايزك تروحي تاني... كفاية لحد كده شغل... وده قراري.

تركت ما بيدها، وعلت نبرتها قليلًا، وهي تقول:

- قررت لوحدك كده، من حقي إني أعترض أو أوافق لأن القرار ده يخصني، حتى لو كان قرار يخصك أنت لوحدك، أنا برفض إنك تاخد القرار من غير ما تناقشني لإننا كيان واحد.

قال مشيرًا إليها:

- أهو، إنتي اللي قولتي احنا كيان واحد، وبعدين أنا معايا فلوس تكفي اننا نعيش مرتاحين طول العمر.

قالت ببساطة:

- بس أنا مش بشتغل عشان الفلوس، بكتب عشان بحب الكتابة وإني أحس بكياني.

- بلاش تغيري كلامك، إنتي لسه قايلة إننا كيان واحد.

- كيان واحد في القرارات، يعني مينفعش أبدًا إني أقولك متشتغلش وكفاية أنا، لازم تحس بوجودك، ولولا إني بشتغل من الأول... مكنتش عرفتني.

قال، وهو يرتدي ساعة يده:

اللي عرفني بيكي يا راحيل القدر زي ما إنتي بتقولي.

- بس شغلي كان سلسلة من التدبيرات بيحقق القدر بيها ما أراد.

- مهما قولتي أنا مش حارجع في قراري، ابننا محتاج ليكي أكتر، وأنا كمان بعد ما بقيت مشهور مينفعش أن زوجتي تشتغل أو إنها تكتب مقالات لا تتوافق مع أفكاري... ده حا يخلق حالة من البلبلة عند جمهوري.

- أنا قولت قبل كده إن الشهرة هتغيرك، وأنت مصدقتش.

ثم أردفت في تحدٍ:

- وعلى العموم شغلي... قدام البرنامج.

قال وهو يهم بالمسير:

- نتكلم في الموضوع بعدين.

ثم أردَفَ:

- اسبقيني أنتِ ومروان لهاشم وسعاد، وأنا أخلص الحلقة وأرحلكم.

بدأت الخلافات تظهر من جديد بينهما بعد أن حسبت راحيل بأنها انتهت، انتظرت في خلال الأعوام الماضية أن يخبرها بما دار بينه وبين الجيوشي من حوار، لكنه أبى أن يخبر أحدًا بذلك، وأشار إلى ما حدث من خلال بعض التلميحات عن المجهول وعن الأقدار، والنهايات المتشابهة، قال إن الأحداث تختلف لكن النتيجة واحدة، هي النهاية التي أقرها الله منذ أن خلق الكون، فكان:

"كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ".

في عصر ذلك اليوم تجمع كل من تبقى من عائلة راحيل في بيت نجلاء، بعد أن عاد هاشم من سفره ومعه سعاد، ولكن الأيام قد زادتهما بيوسف، جلست راحيل مع صديقتها سعاد تقص عليها ما حدث في خلال السنوات الماضية، وتشكو لها بعد حياة وانقطاع أخبارها منذ عامٍ مضى، وفي نهاية الحديث وجهت سعاد نظرها إلى الخارج من غرفة راحيل حيث غرفة المعيشة التي يجلس بها صالح وهاشم المغرقان في الحديث، التفتت إلى راحيل، وتساءلت:

- مالك يا راحيل؟!

تمالكت نفسها، وقالت بهدوء:

- مفيش... ما أنا قدامك أهو.

لمحت سعاد في وجهها علامات الضيق، فقالت:

- حاسة إنك إنتي وصالح زعلانين من بعض.

- لأ أبدًا، مجرد إرهاق بسبب الشغل ومروان.

- مصممة إنك متحكيش... شكلها زعلة كبيرة، ومهما كان اللي حصل حاولي تعدي الموضوع... أنا برضه اللي أنصحك وإنتي طول عمرك تنصحيني، خلاص مبقاش عندك طاقة؟

- حاحاول إن شاء الله ...المهم فين يوسف ابنك؟... أموت وأشوفه.

تنهدت، ثم قالت:

- نايم، وما بصدق ينام... عاملي دوشة طول اليوم.

- عنده قد إيه دلوقتي؟

أدهشها قول راحيل، فقالت متعجبة:

- مش معقول متعرفيش إنه بعد تلت أيام هيكمل السنة.

قالت راحيل وهي تائهة وكأنها تحدث نفسها:

- يوم عشرين، معقول الأيام جريت كده، أنا لسه ملحقتش.

تساءلت سعاد:

- ملحقتيش إيه؟

- متحطيش في بالك.

وانتهى ذلك اليوم الذي كثر فيه الحديث وجاء آخر وصالح صامت عن إكمال آخر حديث لهما، أما راحيل تحاول أن تخفي رغبتها في معرفة قراره النهائي بعد أن مكنها صمته من مباشرة عملها دون أن يمنعها، حتى كسر هو حالة اللامبالاة في غروب شمس يوم الثلاثاء، اليوم الذي سقطت فيه الأقنعة وفرت المودة والرحمة، بعد أن حلت بدلًا منها الشفقة، فقالت راحيل، وهي تحاول أن تبدو متماسكة:

- بما إنك عارف إني هعرف وإن الموضوع مش حايستخبى، ليه مقلتش من الأول؟ خفت إني أمانع... ولو منعت ده حا يمحي اللي حصل، حاسة إنك غريب عني، مش أنت صالح اللي حبيته واتجوزته، رجعت من تاني الشيخ الشاب صاحب عمود الرأي.

أخذ يدور حولها، ثم قال، وهو يحاول أن ينفي عن نفسه المسؤولية:

- دايمًا إنتي اللي متحكمة، مبترجعيش ليا في حاجة، كان نفسي أحس في يوم بأهميتي وإن في حد محتاجلي، لكن إزاي وإنتي الكل في الكل؟... صحيح عمرك ما جرحتيني بس أنا مش حاسس بنفسي، اتمنيت في يوم إنك تطلبي مساعدتي أو تاخدي برأيي، وأكمل في برود:

- خسارة يا راحيل... كل اللي فيكي جميل لكن مش مناسب ليا.

قالت وهي لا تزال محتدة:

- ولسه عارف دلوقتي إننا مش مناسبين لبعض، كل ده لأن ذنبي إني حاولت أخفف عنك، مشكلتك إني أقوى، يعني لازم تحس إني ضعيفة ولا حول ليا ولا قوة إلا بيك، مش عارفة ذنبي إيه، أكيد مقصدتش في يوم إني أنقلك الإحساس ده، بس أنت اللي حسيته... وأنا مش مسؤولة عن أي وهم في عقلك.

- أفكارك يا راحيل هي اللي وصلتنا لكده، مش بتشوفي الأمور زي ما هي، لازم تتوقعي اللي بيحصل وحايحصل، فلسفتك هي السبب، التميمة مثلًا، مكتفتيش إنك تديهالي عشان أرتاح، لكن حطيتي لي الداء في الدواء... قولتي إن

الموضوع متعلق بالنفسية وصدقت، بقيتي تلعبي بعقلي واتحكمتي فيَّ وشغلتيني بيكي، بقيت أسمع اسمك وصوتك وأشوفك في كل حاجة قدامي.

- أكيد بحلم واللي بيحصل مش حقيقي، صح؟

- لأ يا راحيل، أنا مكنتش بحبك، مقدرتش أميز بين شعور الحب أو الشفقة وقتها.

تساءلت في ذهول:

- شفقة؟!

- أيوه، لما حبيتك في الأول كان من كلماتك العذبة اللي كنتي بتكتبيها... ولما شوفتك حبيت صورة أمي فيكي... بقيت مغرم بعقلك وحكمتك، لكني موصلتش لحالة الهيام إلا لما بعدتي وكأن شيء أساسي من حياتي اختفى، وبعد كل ده اتضح إنك كنتِ مجرد روتين لازم أغيره.

قالت بلهجة طبيعية:

- غيرته واتجوزت واحدة تانية فرحك منها النهارده، وأنا أعرف بالصدفة، وجي تقولي وأنت على باب الشقة، أفتكر إني مش بمنع قرارك، لكني رفضتإنك تخبي عني... ومتقوليش إنك مش مجبر تقولي، لأنك مجبر تقول لابنك إن له أخ أو أخت لو ربنا رزقك منها بطفل...وقتها حاتبقى ملزم إنك تقولي... ولو جي يوم رايح عندها فيه، وسألتك رايح فين؟ هتقولي الحقيقة ولا حاتكذب؟ ولو قولت يبقى في

داعي وقتها إنك تقولي، ولو مقلتش يبقى ده اسمه كذب وربنا حرم الكذب.

- بس ده حقي.

- الحق يتاخد في النور، هي مش من حق مراتك التانية تقول إنها مراتك وتروح وتيجي معاك، لكن أنت كنت حا تحبسها عشان معرفش، وده مش هايبقى عدل، وأساس التعدد العدل.

قال محتدًا:

- هو إنتي سكنتي جوا عقلي وعرفتي أنا بفكر إزاي، ودليلك إيه إني مش حا عدل؟

قالت في هدوء:

- اللي يقتنع بفكرة بينشرها، لكن أنت خبتها.

حدق فيها، وقال بغضب:

- ده تصريح إلهي مش فكرة.

- ما علينا... تصريح لكنه مشروط، ومفتكرش إنك تقدر تحقق الشرط ده، لأنك لسه متجوزتش ومعدلتش... أكيد قلت لها إنك متجوز، ومقولتليش إنك حاتجوز لولا خوفك من أي تصرف طايش ممكن أعمله لو عرفت بعدين..

صمتت قليلًا، ثم أكملت بهدوء:

- أفتكر أن الكلام مالوش فايدة دلوقتي ولا حتى بعدين، حتى لو كملنا مع بعض مش حقبل إني أناقشك في الموضوع ده تاني.

صاح بغضبٍ وصل إلى حد الصراخ، أخفى به انتصارها عليه، وقال:

- إنتي إيه؟ حتى مش قادر أشوفك حزينة، غضبانة، وكأن شيئًا لم يكن، طب خليني أحس إنك زعلانة، كسري... اخبطي... صرخي... أي رد فعل.

قالت في عزة نفس:

- مقبلش إني أبان مكسورة قدامك بعد ما رفضت إني أبقى الأقوى منك بعقلي وحكمتي، مش قابل الاختلاف اللي بينا وأنا عمري ما أقبله ومش هقدر أسامحك، عارفة إن اللي أنت عملته مش حرام وحقك، لكن أنا موصلتش للدرجة اللي أتقبل بيها حاجة زي دي، وده قرارك، لكن متطلبش مني بعد كده إني أبقى صادقة في أي مشاعر، لأنه مبقاش في مشاعر.

وأكملت برنة إخلاص:

- هخلصلك لآخر العمر، لأنك في الأول والآخر أبو ابني، اتغيرت وأنا كمان اتغيرت، ومين في الدنيا بيفضل على حاله.

زاد قولها من غضبه، فقال:

- بتلوميني وكأني أجرمت، بس في نفس الوقت بتقولي لأ ده حقك، عايزة تخليني أحس بعذاب الضمير، مشكلتي معاكي يا راحيل هي سيطرتك، إنتي المتصرفة في كل شيء بتقرري نيابة عني، وبتعملي اللي يشوفو عقلك، بتحبي تشوفيني

بالصورة اللي إنتي عايزاها مش اللي أنا عايزها، أنا فين من كل ده؟ وأ.....

قاطعته، قائلة:

- أنت صالح أستاذ الإعلام بكلية اللغة العربية، اللي بقى في غضون سنتين شيخ مشهور يعرفه الكل، وبيحضر مؤتمرات وندوات، وناقش الدكتوراه من شهر، عنده ابن جميل، تجاوز أحزانه وآلامه، صالح اللي اختارته راحيل وعاشت معاه في هدوء وسكينة لحد ما وصل للي هو فيه واتخلى عنها.

صاح، قائلًا:

- متخلتش!

- لأ تخليت عني، وقسمت نفسك بيني وبين غيري، نستني يا صالح بس مش قادرة أنساك... مش حاقدر، إزاي أنساك وأنت كنت معايا في كل لحظة؟ كنت معايا في أيام مرضي وقت حسيت فيه إن الحياة انتهت وإن اسم صادق انتهى وانمحى من الدنيا بدري لما بنته تموت وهي لسه في شبابها، كله قدر لكن أنت كنت قدري، ودايمًا كنت في منامي لفترة طويلة لحد ما حبيتك.

قال في برود:

- شوفت فيكي صورة أمي فتعاطفت معاكي خصوصًا لما جالك نفس مرضها، كنت متذبذب مش فاهم مش حاسس، القلق والخوف من الفراق سيطر عليا ونسيت إنك متعنيش

حاجة غير صورة لأمي، صورة لأصل مات ومش راجع تاني، حقيقي صورة لكن التفاصيل مختلفة، وكانت مجرد شفقة يا راحيل.

هدأت ثورتها، عندما تساءلت:

- وإن كان كل ده شفقة، إزاي كنت بشوفك في منامي وأنت بتشوفني؟

أجاب ساخرًا:

- زي ما قولتيلي قبل كده إن الأحلام في عقلنا بإرادتنا إننا نوقفها وبأيدينا إنها تبقى دايمًا معانا، وأنا قدرت أمنعها وأصدك عن سبيلي.

تركها ورحل إلى ما قرره، وحيدة، حزينة، حاولت أن تتماسك لكنها لم تستطع وانهارت على أقرب مقعد مع إغلاقه للباب، كانت متذبذبة لا تدري ماذا تفعل، وكيف لها أن تصده هي الأخرى عن سبيلها؟ ولم يكن لها قرار سوى الفرار كي تكمل القراءة، فلا نملك في تلك الحياة إلا قراءة أسطر القدر، نظن أننا نتحرك كيفما شئنا وأينما أردنا، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإننا نساق إلى قدرٍ مجهول، لا علم لنا به لكنه معلوم عند خالقنا، أبصرناه من قبل عندما مر علينا ما حدث وما سيحدث عندما كنا في عالم الغيب، لكن أبت عقولنا الاحتفاظ به حتى تجعلنا حائرين ...مشردين... نترقب في كل لحظة اللحظة التالية، نحلم ونتمنى ونشيد من الأحلام

صرحًا يتهاوى في لحظة غرور... تكبر... أنانية، نختار قدرنا بأيدينا ونندم بعدها على ما فعلنا، ولكن من يعلم المختار؟ نختار نحن أقدارنا؟ أم تختارنا هي؟ لا نعلم إن كنا نحن المظلومين أم الظالمين، نظلم أقدارنا أم تظلمنا هي؟ ولكن بالأحرى القول بأننا نظلم أنفسنا، ظلمت راحيل نفسها وابنها عندما قررت الرحيل حتى يُصبح لحياتها نصيبًا من اسمها، صعدت القطار رقم (832) في ساعة مبكرة من صباح يوم العشرين من فبراير لعامهم هذا وهي تحتضنه لا يشغلها شيء سوى الهرب، هربت من قدر لقدر، جلست على إحدى المقاعد وذكريات عمرها تمر أمامها، الجميع رحلوا عنها ومن لم يرحل رحلت هي عنه في سنوات لم تبق لها سوى ذلك الطفل الجالس بين أحضانها، تملكها الانتقام، والكره فلم يصبح في قلبها موضع حب، حتى مروان هربت به كي تذيق صالح من نفس الكأس الذي تجرعته وانتهى بها إلى ذلك القطار في ليلة شديدة البرودة حالكة الظلمة، تنظر إلى ساعة يدها بين الحين والآخر، تخشى أن يراها أحد حتى لا تعود مجددًا لذلك العذاب، بدأت تتفحص الوجوه من حولها، تفكر في ماضي وحاضر ومستقبل كل من تقع عليه عيناها، لكن أي مستقبل ينتظر هؤلاء، فكانت واحدة من هؤلاء الأبرياء الذين تحالف عليهم القدر وجمعهم في نفس المكان والزمان لينتقل بهم إلى حيثما أراد بعد أن ظنوا من قبل أنهم ذاهبون إلى حيثما

أرادوا، بعد فترة قصيرة من تحرك القطار كان صالح في بيت هاشم يتساءل عن راحيل بعد أن تأكد بأن نجلاء لا تعلم عنها شيئًا، وعندما لم يجدها، قال في غضبٍ مكبوت:

- طالما هي مش عندكم ولا راحت لنجلاء هتبقى فين، انشقت عنها الأرض... أنا رايح أدور عليها.

أومأت سعاد برأسها مهدئة:

- استني لحد النهار، لو مظهرتش يبقى أنت وهاشم تدوروا.

أيد هاشم قولها:

- بالظبط، استني شوية.

قال وهو يبدو غاضبًا:

- أنت أكيد بتهزر، ليلة كاملة تبات فين.

تساءلت سعاد مستفسرة:

- هو إيه اللي حصل عشان تمشي من غير ما تقولك؟ أنا برضو حسيت إن في حاجة بينكم.

قال صالح كأنه يتجاهلها:

- لما نلاقيها الأول نبقى نتكلم.

صمتت سعاد لحظة مفكرة، ثم وجهت سؤالها لصالح:

- طب هي خدت العربية ولا سابتها؟

قال في غير اهتمام:

- مركونة تحت البيت.

تساءل هاشم:

- إنتي عايزة توصلي لإيه بالظبط؟

قالت ببساطة:

- يبقى سافرت أسوان.

هاشم:

- وعرفتي منين؟

أخذت تدور حول هاشم، وهي تقول بهدوء:

- إيه اللي يخلي أمي ساكتة لحد دلوقتي غير إنها تبقى عارفة مكانها.

صاح صالح:

- عندك حق... تعالى معايا يا هاشم.

- على فين؟!

قال وهو يسرع نحو الباب:

- نلحقها بسرعة في المحطة.

قالت سعاد:

- طب عدوا على بيتنا تاني، وتأكدوا إذا كانت خدت المفاتيح ولا لأ.

وسط ذلك المأتم القائم بين السماء والأرض، والكون الذي يتشح السواد في بهمة الليل، مازال القطار يجري وراحيل به، تأكد لها أن ما مرت به ما هو إلا وهم، توقفت أمام إحدى نوافذ القطار المهشمة التي شهدت على انتهاء لحظات يأس مر بها من كانوا في القطار، فاتخذوها سبيلًا للفرار وقفز البعض منها،

كانت مجرد ردود فعل سريعة طائشة حاول بها الراكبين أن ينجو من تلك النيران التي باتت تلتهم الأرواح واحدة تلو الأخرى، فأعطوا للقدر الفرصة الأخيرة كي ينجيهم من تلك الفاجعة التي حلت بهم وهم يجهلون أنهم فارون لأقدارهم، فمن قرر الانتظار في القطار كان ذلك قدره وليس بقراره، حتى من ألقوا بأنفسهم من القطار كان قدرهم إما الموت دهسًا تحت عجلاته المستمرة في الجريان وإما النجاة، كان وزرهم الوحيد أنهم تبسموا لعيدهم وتعجلوا لرؤية أحبابهم ...

أما راحيل فمازالت ضائعة، ضالة، لا تقوى على المقاومة، فمن ستقاوم؟ وكيف؟ حتى شعرت بأنها بدأت تستيقظ من منامٍ قد طال، فلم يكن من اليسير أن يقف الإنسان أمام نفسه كي يصارحها بكل ما بداخله من صراع، لكن الأصعب أن يجد كل ما يدور بداخله من صراع ما هو إلا وهم، ليندم حينها على كل لحظة أضاعها وهو أسير ذلك الوهم، فكانت مشاغل الحياة هي أكبر وهم..

وصلا صالح وهاشم المحطة في تمام الثالثة صباحًا، حركة غريبة تدب بداخلها في ذلك الوقت أم إنها كانت حركة معتادة يجهلها صالح وأخيه، بعد فترة طالت، علم صالح سبب تلك الحركة الغريبة، وهو أن القطار رقم (٨٣٢) تعرض

لحريقٍ بعد تحركه بمدة قصيرة بالقرب من قرية (ميت القائد).

قال هاشم لأخيه محاولًا تخفيف هول الصدمة:

- متقلقش لسه معندناش يقين إنها فيه.

قال صالح في حسرة:

- لو كنا سمعنا كلام سعاد كنا فهمنا اللي حصل.

واقترح:

- يالله نروح لهناء ونسألها.

أسرع صالح يسابق خطوات أخيه حتى وصلا إلى سيارته الكائنة بالقرب من مسجد الفتح، وقال:

- يالله بسرعة.

بدأ يقود السيارة في سرعةٍ وطيش وكأنه يسابق القدر، على أمل أن يجد راحيل جالسة عند نجلاء تنتظر قدومه... وعندما وصلا البيت وجد سعاد قد سبقتهما إليه فوقفت أمام بابه تحمل مروان، ربت هاشم على كتف أخيه عندما رأى مروان، وقال:

- مش قولتلك، أهو مروان، وتلاقي راحيل جوا بس زعلانة.

قالت سعاد:

- لأ، هي مش هنا.

قال صالح، متسائلًا:

- أمال؟

- ادخلوا بس الأول.

أفسحت لهما الطريق فاستقروا بالداخل حيث نجلاء التي بدأت ترمق صالح بنظرات اللوم، فتحاشى الاصطدام معها وجلس، يستمع لسعاد، عندما قالت:

- بعد ما مشيتوا خدت يوسف ونزلت جيت لماما هنا، ولما سألت هناء قالتلي إنها عدت وقعدت تحكي مع ماما وبعدين خدت المفاتيح ومشيت.

تساءل هاشم:

- ومروان جي إزاي؟

- استنى، ما أنا كنت لسه هقول.

وأكملت وهي توجه حديثها لصالح:

- بعد شوية الباب خبط كانت مريم زميلتكم في الجريدة، قالت إنها قبلت راحيل في المحطة وكانت مريم راجعا من الإسكندرية، فراحيل بعد ما طلعت القطر نزلت وقالتلها خدي مروان رجعيه لنجلاء، وسبتلها العنوان و الرسالة دي ليك... ومدت يدها لصالح بالرسالة.

تساءل هاشم في ذعر:

- يعني هي سافرت؟

- آه، مالك مخضوض ليه؟

شعرت نجلاء الصامتة بأن هناك فاجعة حلت كما تبينت من ملامح وجه هاشم، فاتجهت نحو صالح، وتساءلت:

- إيه اللي حصل؟

دفن وجهه بين كفوفه، وقال بصوتٍ ضعيف:

- القطر عمل حادثة.

- قطر إيه؟

لم يجب... فاقترب هاشم من نجلاء، وقال:

- اقعدي بس وأنا أشرح لك.

قالت سعاد بعصبية:

- هو أنت لسه حا تحكي، إيه اللي حصل.

فأسرع قائلًا بصوتٍ ضعيف متقطع:

- القطر اللي فيه راحيل حصل في عربياته الخلفية حريق، وأنا عندي أمل أن العربية اللي فيها راحيل النار متكونش وصلت ليها.

رفع صالح وجهه بعد أن بدا عليه دموع الرجال التي لا تنطلق ولكنها تلمع في عينيه، وقال في صوتٍ ضعيف:

- راحيل مبتركبش غير درجة تالتة يا هاشم.

أصاب الخوف الجميع ومنهم هناء، كانت غائبة عن المشهد لكنها حاضرة الموقف بعد أن تظاهرت بالنوم، وقفت بالخلف من باب غرفة راحيل تسترق السمع حتى أجهشت بالدموع مع آخر قول لصالح، بدأت تتذكر قول نجلاء، حينما أخبرتها بأن

هناك تشابهًا بين موت فارس وصادق في حريقٍ، وكأن قدر عائلة عبد الرحمن الموت حرقًا، فكانت البداية بصادق ثم فارس والآن راحيل، احتضنت هناء ابنها وانهمرت دموعها، وهي تقول:

- يارب تكون نهايتك المكتوبة أخف من اللي حصلهم.

بعد أيام من الحادث، جلس صالح أمام نجلاء مقرًا بذنبه تاركًا لها الحق في أن تقول ما تشاء، قالت وهي تعنفه:

- ملقتهاش، صح؟ ومش هتلاقيها لإنك أنت اللي ضيعتها، جاتلي ليلة فرحك وحكتلي اللي حصل فقلتلها اهربي، لكن ماكنتش أعرف اللي حيحصل، افتكرت نفسي بخبيها منك، لكني خبتها عن الدنيا كلها...مش عارفة ألومك ولا ألوم نفسي.

قال في أعماق نفسه الجريحة:

- حق لها أن تقول ما تشاء، فلقد سبب لها طمعي ألمًا سيستمر معها ما تبقى لها من أيام بعد أن بدأت روحها تطرق أبواب الفناء، أرجو أن تغفر لي ذنبي هذا، فمن أين لي العلم بما سوف يحدث؟ وما ذنب صفاء في امتناعي عن الذهاب إليها وأن أكمل ما كان بيننا، انفصلت عنها قبل عقد القران خوفًا على راحيل، أسرعت نحو راحيل كي أخبرها أنني مازلت أحفظ العهد، لكن لم أجدها بعد أن مضت إلى مصيرها المجهول.

استفز نجلاء صمته هذا، فقالت في عصبية تكاد تصل حد الصراخ:

- جاوبني... لو كنت نسيت راحيل على الأقل أفتكرها أنا وأفكر ابنها بيها، ويبقى ليها مكان في قلوبنا مادام ملهاش مكان في الأرض.

امتنع أن يجيبها بل أجاب نفسه، قائلًا:

- لقد عذبني قولك وكان كفيلًا بأن يسلب السعادة من قلبي طيلة الحياة ويجعلني أسير الحسرة أبحث عن من يفك أسري هذا، لكن أين المفر؟

وبعد شهر ضاع في البحث دون جدوى، مازال صالح في طريقه متروكًا في ذلك الغموض، فلا خيط من الضوء يمده بالأمل، يسير حزينًا بعد أن أهلكته مشقة البحث، توجه صوب بيته تتسابق يده لإنارته بعد أن بات موحشًا منذ أن ابتعدت راحيل، تحمل ذلك القبر بوحشته عسى أن تعود، لكن ذلك الأمل قد بتر بعد أيام قضاها في التفتيش بين المصابين في المستشفيات وبين ثلاجات الموتى، جلس في تلك اللحظة بالخلف من الباب ينتظر عودتها، يظن أن صوت دقاتها الرقيقة لن تصل لمسامعه فتيأس من الانتظار وتعود إلى حيثما كانت، وهو على ذلك الحال ذهب في غفلةٍ استيقظ منها كما اعتاد

مفزوعًا، فأين هي؟ وإلى أين ذهبت؟ كم تمنى في تلك اللحظة أن تعود إليه جسدًا لا روح فيه يستطيع أن يواريه الثرى، ويكن مسكنها ملجئه كلما اشتاق إلى الحديث إليها، لكن ذلك الأمل صعب المنال، فقد ضاعت هويتها بين الأشلاء المتناثرة هنا وهناك، ولم يتبق شيء يذكره بها سوى ذلك الطفل، فمثلما كان التمثال والتميمة يذكرونه بها في الماضي، أضحى الآن مروان يذكره بها، لابد أن يدفن أحزانه ويبدأ مع ابنه مروان الحياة الجديدة التي لابد أن يتعودها بعد أن ضاع الأمل، فمن أين له العلم منذ اليوم الأول الذي بدأ قلبه ينبض نحو راحيل بأن قصتهما ستنتهي بفقدٍ يُحدث في قلبه جرحًا سيستمر معه إلى نهاية الحياة، فلم يكن هذا صنيعه بل صنيع الحياة، حين التقى مع راحيل منذ سنوات أضحى الماضي سرابًا وسطرت حياته معها حياته الجديدة دونها بل مع ابنهما مروان، حتى تعهد صالح أنه سيحاول أن يزرع بداخل ابنه ما رأى في راحيل حتى يكون شبيهها.

حي الشهداء...

الفلوجة

نيسان ٢٠٠4م

(١٤)

يخيم السكون على مدينة المساجد بعد أن تبدل صباحها لليل دامس، وقفت حياة بشرفة بيتها في حي الشهداء تترقب الطرقات المملوءة بالحزن المقيم الذي أقفر المكان عن ساكنيه، هجرها أغلب سكانها عدا هي ومهدي وبعض من العائلات التي تمسكت بمدينتها، تستعيد أول ليلة لها في تلك المدينة وذلك الحي، كانت ليلة مفعمة بالنور وأصوات الضحك والحديث، ارتحلت إليها مع مهدي منذ عامين مضيا، تركا بغداد قاطعَين ما يقرب من ستين كيلو مترًا إلى الغرب منها قاصدين الفلوجة، نزلا في بيتهما الجديد بعد أن اشتراه مهدي من صاحبه الحاج حامد، بعد ما قرر أن يكمل حياته في ذات البيت الذي هربت إليه أمه منذ سنوات، لتكن جدران البيت شاهدةً على بداية حياته الجديدة في أول مستقر له في الأرض، وفي فجر يومهما الأول بالمدينة، أسرع مهدي نحو مسجد الأنبياء والمرسلين مستجيبًا لمنادي الفجر بعد أن قطع على نفسه عهدًا بأن لا يتخلف عنه حين أنجاه الله أيام شدته الأولى.

وبعد ما يقرب من عامٍ استقرت فيه بالمدينة، تعودتها وكونت صداقات مع الجيران؛ فأحبوها وأضحى لها مكانة خاصة في قلوبهم، شاركتهم في خلال ذلك العام الاحتفالات بجميع

المناسبات وشاركتهم الأحزان، أحبها أطفال الحي وأمسوا يتسابقون إلى بيتها كل مساء طامعين في سماع قصة جديدة، كانت تسرد لهم القصص التي سمعتها من قبل في مصر حين كانت طفلة صغيرة، كما أتيح لها في خلال ذلك العام أن ترى احتفالات دراويش الفلوجة بالمناسبات الدينية؛ لتتذكر في كل احتفال صديقتها راحيل وشغفها بهؤلاء الدراويش.

ومضى عامآخر سقطت فيه مدينة المنصور بغداد وتبدل ربيعها خريفًا، انقطع الاتصال بين أهل المدينة وبين المدن الأخرى، حاول مهدي أن يتعرف على حال نوار وقاسم وأولادهما تلك الليلة فلم يستطع.

كان الشيخ قاسم يعلو صوته بنداء الحق الذي يخترق أصوات القذائف، ثم بدأ يدعو الناس بالثبات ويحذرهم من القصف، كانت ليلة طويلة موحشة حاولت فيها نوار أن تختبئ بقصي وحميد ورضيعها في أنحاء البيت باكية، خائفة، لكن قدرهم كان الموت في تلك الليلة، وبعد أن هدأت الأوضاع اتَّجَه قاسم إلى الفلوجة لينزل في منزل مهدي ويبدأ من هناك مرحلة جديدة من حياته وهي الثأر، أما اليوم فالمدينة محاصرة من كل جانب عدا بعض الطرق التي لا يعرفها سوى أهل الفلوجة ومنهم مهدي.

أغلقت حياة النافذة واستدارت نحو مهدي الجالس بأرضية الغرفة المربعة البناء، الممتلئة بالوسائد المتراصة في أركانها، يجلس بجانبه الشيخ قاسم بعد أن شرعوا في صناعة بعض القنابل استخرجوا موادها من القذائف المتناثرة في أرجاء المدينة، تعلم مهدي صناعتها في أثناء اشتراكه في بعض عمليات المقاومة، أولاها بعد ما يقرب من شهر ونصف من سقوط بغداد، التحَم فيها مع بعض قوات الاحتلال عند نهاية الجسر العلوي المار فوق نهر دجلة، وبعد أن مات قائده (أبو سُمية) بدأ هو وقاسم وغيرهم في القيام ببعض العمليات المتفرقة في أنحاء المدينة، مستغلين معرفة أحدهم بمداخل ومخارج المدينة كي يتمكنوا من الاشتراك مع بقية عناصر المقاومة التي انضمت لهم من بعض البلدان العربية.

قالت حياة بعد أن عَدلت من غطاء رأسها:

- الليلة هاي المنطقة هادئة ...كأنه الهدوء السابق للعاصفة.

قال الشيخ قاسم بنبرة مشحونة بالحماس:

- بعد صلاة العشاء إن شاء الله حينكلب ظلام المدينة بنور القذائف ونور النصر، راح أثأر لروح نوار وأولادي الله يرحمهم.

- إن شاء الله، بس بعدكم مصرين إنكم تقذفوهم من وره المسجد.

قال مهدي:

- ماكو أمان أكثر من المسجد، ميكدرون يضربوا، لتخافين.

وبعد أن استمعوا إلى أذان العشاء من المسجد القريب، جمع الشيخ ومهدي أسلحتهم وأسرعوا نحو الخارج حيث الطرقات، أسرعت نحوه حياة تحمل إليه راكان بعد أن طلب رؤيته قبل بدء العملية، احتضنَ راكان، وقال في نبرة هادئة حزينة كأنه يودعه:

- ديربالك ع أمك...راكان أنت بطل.

أبكى قوله حياة التي قالت في محاولة منها أن تذكره بما قد مضى:

- ما اخترعت، متذكر هي الكلمة.

ثم حمسته، قائلة:

- أنت الأقوى.

ودعهما مهدي واتجه بخطى حثيثة نحو المسجد وحياة تلاحقه النظر حتى اختفى بين الطرقات، بعد ما يقرب من ساعة وقعت هزة شديدة في المنطقة وكأنها زلزال بقوة شديدة، صاحب ذلك أصوات تكبير وطلقات نارية متسارعة صعق لها كل من في الحي.

جلست حياة ليلتها تلك خائفة مترقبة، تتذكر آخر قول لمهدي وتدعو الله أن لا يتحقق ظنه وأن يعود إليها سالمًا، وبينما هي على ذلك الحال سمعت أصوات دقات تصدر من الباب الخلفي للبيت حيث مطبخه، تلك الأصوات التي تعودتها مع

نهاية كل عملية لمهدي حيث يعود إليها من ذلك الباب، اتجهت نحوه مسرعة يتطاير قلبها فرحًا، لكن تبدل حالها عندما رأت قاسم يحمله ويسرع به نحو الداخل، أسرعت بالخلف منه باكية، وهي تتساءل:

- مات؟

أسنده إلى فراشه، وهو يقول:

- لا.

جلست حياة بالقرب منه تحاول أن تزيح عن وجهه الدماء وفي أثناء ذلك رفع عينيه إليها، وقال بصوتٍ ضعيفٍ متقطع:

- مادري، هاي الكلمة جنت أكولها أكثر من أي شي ثاني، وهسه داكولها على مصيري الجديد، فمادري لوين رايح وشرح يكون حالي! لتخافين عليا إني بيد رب العالمين والله يعرف بكل شي، بس خايف على هالوطن، خاف ماشوف مصيره، وخايف عليچ يا حياة، جبتج لهنا وأني أجذب اللي ڴاله والدج من أن القدر ديتكرر، بس هسه فعلًا القدر ديتكرر، رح أتركج وحيدة ببلد غريب.

أجابت بصوتٍ يختلط بالدموع، وقد غلبتها لهجتها المصرية:

- مبقدش غريبة عني، بقت زي بلدي، حبيتها وانفطر قلبي من اللي حصل، البلد مش مكان اتولدت واتربيت فيه، البلد ناس عشت معاها وحبتهم كأنهم أهلك ومن غيرهم بتنتهي

الدنيا، مصر بلدي والعراق بلدي..ثم أكملت بلهجته، كي تؤكد له أنها أضحت واحدة منهم:

- الرب واحد، بس الوطن ممكن يكون بأكثر من مكان، النبي نولد بمكة ومات بالمدينة، مكة جانت أحب البلاد لكلبه لكن بالمدينة عززوه ونصروه، وأني عندي استعداد أموت هنا ويا الناس الي أنطوني أحلى أيام حياتي واندفن قريب منج.

- أدعو الله أنه ينطيج العمر حتى تشوفين بلادي قوية مثل مجانت، ورح تكون بإذنه، بس هاي الأمنيات أنانية مني، الأيام الجاية محد يعرف شرح يصير بيها، روحي بسرعة وره ما أموت لسفاره بلدج بلكي يلحكون ينقذوج من أي ضرر، ولا تخافين من الذكريات هي بالگلوب وبكل مكان.

قالت بتأثر:الذكرى بالكلب، بس الروح هنانا وأنت جزء من الروح ... جزء من السر...عاد يهمس:مادام هيج ... لازم يا حياة تتحملين اللي رح تشوفي من اليوم ورايح، أني مو حزين على شي غير على هالوطن مثل مكلتلج، أما حياتي متسوى شي يمي، الله أنطاني خمس سنوات ورا الحادث الأخير جانت فرصه حياه وياج... شوفي هسه احتفظي بالصور الحلوة اللي بعقلج ولا تخليها تتلوث.

مطار القاهرة الدولي

مايو ٢٠٠٤

(١٥)

أشفق على راحيل حينما انتظرت في ليلتها الباردة القاسية داخل المطار تنتظر جثماني والديها، ولم يتبادر إلى عقولهم بأنهما سينتظران مثلها، فما بالك بهما يجلسان منتظرَين حفيدهما راكان، بعد أن انتهت الحياة بأمه في بلدٍ غير التي تربت به، كانت وصيتها الأخيرة أن تدفن مع أهل تلك البلدة، لكنها أشفقت على راكان؛ فأوصت بتسليمه للسفارة المصرية إذا ما ماتت، بعد ساعات انتظار طالت عليهما وكأنها عقد من الزمان، تسلم أحمد من مندوب السفارة راكان الطفل الحزين بعدما سلبت الحياة سعادته قبل أن يدرك معنى السعادة، وضاعت حريته فأضحى سجين ذكريات قاسية، حملته جدته وأخذت تتنسم رائحته عسى لها أن تجد روح ابنتها، بجانبها يقف أحمد تختلط مشاعره بين السعادة لرؤيته وبين حزنه على ابنته... بدآ يودعان المطار عازمين محاربة القدر إذا ما حاول أن يعيدهما إليه مرة أخرى، وفي أثناء عودتهما في السيارة نطق الطفل الصامت صاحب الثلاث سنوات بعد أن انتهى من لحظات تأمله لأهله الجدد، وقال:

- قصفونا.

فزع أحمد من قوله، فسأله مرة أخرى، قائلًا:

- بتقول إيه؟!

ثم تذكر أن ابنته أضحت تتحدث اللهجة العراقية منذ مدة طويلة، وأن راكان لم يسمع بغيرها، فبدل الصياغة، محاولًا تبسيط السؤال:

- أجحي ياللي جنت تكوله؟

قال الطفل بصوتٍ ضعيف:

- قصفونا.

قتلوا الطفولة دون أن يدركوا، أو ربما أدركوا ولم يزعجوا لقتل الأمل داخل ذلك الطفل، فكيف سيصبح عندما يتقدم به العمر؟ فلم يتبق له من بلدته الجميلة سوى تلك الذكريات الحزينة، وأم وأب دُفنا بعيدًا عنه، ورسالة مدسوسة بين ثيابه رأتها نادية وهي تفتش في تلك الحقيبة عسى لها أن تجد شيئًا يحمل طابع ابنتها المرحة المنطلقة، كتبت حياة فيها:

- راحيل، إليكِ رسالتي:

"مازلت أتذكرك يا صديقتي وأتذكر حديثك، وبسمتك، وحكمتك، أرجو أن تقبلي اعتذاري عن ذلك الأسلوب الضعيف في الكتابة، ولِمَ لا يكون ضعيفًا وقد وهنت أنا من قبله، وعزائي الوحيد فيما أصابني الأيام القليلة السعيدة التي عشتها هنا، سأذكرك بما قد سبق، منذ اليوم الذي رأيت فيه مهدي في التلفاز وأنستْ صوته وحديثه وانشغلت به عمن سواه، على رغم أن حديثه كان عن الصراعات التي تمر بها بلاده،

وأخبرتك بما أشعر به من شعورٍ جديد لم أتعوده من قبل، واكتفيتِ بأن تطلبي مني التمني، حتى سمح لي القدر رؤيته وأصبحت مرشدة له في إحدى زياراته لأسوان، ففي اليوم الذي تحقق فيه ظني وقفت أمامه لا أعي شيئًا سوى الانشغال بحركاته، وصوته، وهيئته... كي أبرهن لقلبي أنني لم أتوهم حبه، ظل هو كذلك واقفًا أمامي لا يتحدث وكأن أرواحنا تلاقت من قبل على رغم بُعد المسافات، وعندما وجد كل منا الروح التي استأنسها في عالم الغيب أبى الفراق وتمسك بالآخر، كانت عينه تخبرني بذلك الشعور الذي سرى في قلبه حينما أبصرني، وكنت مثله أقف أمامه أقر في نفسي بالذي قد كان مني من حب.

اكتفينا بنظرة الحب تلك ولم يخبر أحدنا الآخر بشعوره، بل اكتفينا بأن نلتمسه من الأحاديث القليلة التي دارت بيننا، فعاد لبلاده وانشغلت بمرضك وخوفي عليكِ، كنت أخشى أن أفقدك فلا يبقي لي أحد يا أختاه ألجأ إليه كلما ضاقت عليّ الحياة، وفي إحدى زياراتي إليكِ بالمستشفى سألتك عن أيامك هناك، فهل تعودتيها؟ أم تعانين الوحدة والمرض، وكان جوابك:

- لقد تعودت المكوث هنا بعد أن طال.

فجلست عند أطراف فراشك بعد أن غيرتِ حديثك، كي تخفي الدموع التي كادت تسقط من عينيكِ، ثم وجهتي سؤالك:

- كيف حاله؟

- من؟! ولم يكن بسؤال بل تهرب، ولم يكن لي جواب سوى قولي:

- لا أعلم عنه سوى ما يعلمه الجميع.

وتركتك وذهبت، وفي طريقي سمعت صوت يناديني، التفتُّ إليه وأنا أدعو اللّه أن يصدق ظني، وقد صدق، فتظاهرت بجهلي، وسألته:

- ماذا حدث لك، وكيف جئت إلى هنا؟

ولم أستمع لما كان يقول، فأنا على علم بالحادث الذي تعرض له في بلاده وأجبره المجيء إلى هنا كي يتلقى الرعاية الصحية.

تبسم بسمة حانية، وقال لي:

- إنكي مثل نسمات الصيف تحضر للحظات لتأسر قلوبنا ثم تغيب.

- أنا مازلت هنا وحينما تود رؤيتي ستجدني.

- في أي وقت؟

- في أي وقت.

فزاد تعلقي به وتعلقه بي الذي لم يتجاوز أكثر من مجرد جبر خاطر مريضٍ في الظاهر، لكن الحقيقة لم تكن كذلك، كان قلبي يحمل أكثر مما هو رفق بمريض، ولكن تلك المرة كان شعوري حقيقيًا ولم تخدعني نبضات قلبي ولم تكن نوار ابنته.

وكان اليوم التالي آخر يوم له في المستشفى هذا، صمتنا مدة من الوقت بلغنا خلالها الممر الطويل في المستشفى، ذاك الذي كثيرًا ما تعود معكِ السير فيه، في نهايته كسرت الصمت، وقلت له:

- متى ستعود لبلادك؟

- لا أدري متى، لكن أنا على أمل العودة قريبًا.

ثم توقف عن السير، وقال بنبرة حانية رقيقة:

- على أمل أن أعود وأنتِ معي.

وبعدها بأيام جدد طلبه بالزواج، وبعد طول جدال مع أبي تحقق ما تمنيته بفضلك، وبعد مدة كما تعلمين تزوجنا، عاد لبلاده وأنا معه، حاولت التأقلم كثيرًا مع تلك الحياة الجديدة حتى تعودتها وتخطيت حاجز الغربة بوجود مهدي وأخته نوار وأولادها، فكانوا يتجمعون حولي ويطلبون مني أن أقص لهم قصة عن الماضي، وأن نتحدث عن الحاضر، ونتخيل المستقبل

ذلك الذي قتل، أما ما حدث بعد ذلك يصعب وصفه يا راحيل، واعذريني عن نبرة اليأس التي أتحدث بها الآن، أظن أنكِ علمتِ ما حدث ببلد مهدي، لكن ما نقلته الصحف ووكالات الأنباء هو مجرد وصف غزو ودمار ألحق الأذى بمنشآت وخلف القتلى والمصابين، لكن لم يتحدث أحد عما أصاب النفوس التي أضحت تحيا جسدًا بلا روح، فقد تأصل الخراب بداخلي، وكيف لا يتأصل بعدما أبصرت ما أبصرت، يكفي رؤيتي لمن أحببتهم وتعلقت بهم يُقتلون أمام عيني وأنا عاجزة عن إنقاذهم، وصوت مهدي، وهو يقول:

- من مات دون وطنه فهو..

ولم يكملها، فلقد أبصرت نظراته تشرد ويده تنسحب من يدي، وارتفع صوتي بالصراخ كي يعلن الاحتجاج، لكن أين المجيب ونحن في مشهد يومٍ عظيم؟ أصبحت ضالة النفس هائمة الروح، فالأيام لم تمهل مهدي ورحل تاركًا راكان صغيرًا مازال في حاجةٍ إليه، طافت بعقلي فكرة الهرب، لكن إلى أين؟ ولِمَ؟ فحفظت العهد وأقسمت على البقاء، جلست راكعة باكية أمام فراشه، وقاسم بجانبه يرتل آيات الله ويجهش صوته بالبكاء من آنٍ لآخر، في حين أن مهدي ممدد على الفراش أناديه فلا يجيب، حتى تسلل ضوء الصباح لداخل البيت، فما كان علينا إلا أن نتجه إلى المقابر القديمة وسط

المدينة حتى نواري ذلك الجسد الثرى، حمله قاسم كما هو دون أن يكفن، ثم قال لي:

- إننا لا نقوى على تدبير قوت يومنا، فما بالك بمعدات الدفن، حتى وإن توفرت لنا الأموال فمن أين نأتي بها في ظل ذلك الحصار؟ سنحمله كما هو ونحتسبه عند الله من الشهداء.

توجهنا نحو المقابر مع عشرات الأهالي الطامعين في دفن موتاهم، لكننا وفي كل مرة نعود خائبين دون أن ندفن أحداً مُحملين بأعداد أخرى من الموتى زادهم علينا العدو، يأس الشيخ قاسم من دفنه في المقابر فقرر دفنه بداخل حديقة المنزل، ولم يكن ذلك بهين عليَّ، أنا الذي تعودت وجوده وصوته"...

أكتب إليكِ تلك الرسالة وأنا جالسة بالقرب من قبره، وبجانبي يجلس راكان، تكفي نظرته الحزينة على قبر أبيه لتروي مأساة ما حدث، هسه وأن استمرّ في الكتابة استمع إلى أصوات النحيب والصراخ وعيني ترى أهل الحي وهم يحملون ما وصلت إليه أيديهم من أمتعة على السيارات، أما أيديهم فتحمل الرايات البيضاء متجهين بها نحو المَنْفذ الجنوبي للمدينة، يفرون بأرواحهم من الفناء، ولكِ أن تتخيلي ما أراه الآن أنا الذي

ظللت لسنواتٍ كثيرة من عمري مرفَّهَةً تزعجني أصوات مفرقعات أعياد الميلاد .

مازال قاسم يحاول أن يقنعني بالفرار لكني أتمسك بالبقاء، وأمام خوفي على راكان على ذلك القلب الصغير أن يقسو، طلبت من قاسم أن يأخذه إلى حيث السفارة المصرية ببغداد إن كانت تعمل حتى الآن، فلا علم لدي في عزلتي تلك بالأوضاع في بغداد، وإن كان... سأضع معه الأوراق الخاصة بنا مع عناوين أهلي بالقاهرة، أما أنا سأحمل بندقيتي وأتجه إلى طريق الجهاد، أوصيكِ بأن تعتني براكان عندما يصل إليكِ، لأنه في ذلك الوقت سيصبح مثلك لطيم الأب والأم اللذَين ماتا في نفس البقعة من الأرض، فذلك الخطاب لن يصل إليكِ إلا بموتي، حينها سيحمل قاسم راكان ومعه أوراقه وتلك الرسالة ويتجه به إلى منفذ المدينة السري الذي عرفه من مهدي.

راحيل، صديقتي ... ما دامت كلماتي قد وصلت إليكِ فكوني على يقين أني قد فارقت الحياة.

من أين لها العلم وهي تكتب تلك الرسالة بأنها تكتبها للهواء، من يمكنه الآن أن يتسلمها بدلًا من راحيل، فمن

باستطاعته إخبار الموتى بقسوة الحياة التي أضاعت فيها صديقتين مازالتا في سن الشباب، ربما التقيا الآن عند رب العباد وانشغلا في نعيمه جل علاه عن قسوة الحياة وأحزانها، ربما استقبلت راحيل صديقتها بالفرح والسعادة، ورددا معًا: "وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ".

(١٦)

تساءلت حياة في دهشة:

- إنتي إيه اللي جابك هنا؟

- إنتي اللي جيتي بسرعة! صحيح الكل جي هنا، لكنك جيتي بسرعة أوي.

- ولا بسرعة ولا حاجة.

- أنا عارفة إنك اكتبتي عليا دنيا وآخرة، تعالي أفهمك بما إنك لسه جديدة هنا.

وأكملا السير في ذلك الفضاء الفسيح، التفتت لها حياة، وتساءلت:

- هو إنتي جيتِ إزاي؟!

- القطر اللي كنت مسافرة فيه..

- ماله؟

- اتحرق.

- ما أنا قولتلك بلاش قطر، شوفتي اللي حصلك.

- ما هو إنتي سافرتي في طيارة وحصلك إيه هناك.

- هو إنتي عرفتي اللي حصلي؟

قالت في تفاخر:

- طبعًا.

- ده أنا كنت مستنية أحكيلك.

- بلاش نحكي عن الدنيا همومها أثقلتنا، تعالي نستمتع بالحياة هنا، هتشوفي حاجات روعة.

- يا سلام هتبقي مرشدتي... دي شغلتي أنا!

- كانت... كانت... المرشد هنا بالأقدمية.

- طب ارشديني لمكان مهدي.

- هو كمان مات؟

- آه، وأخته ماتت وأولادها... بس ابن عمه عايش لسه بيحارب في بلده ممكن شوية ويجيلنا... وعمالة تقوليلي عارفة!

- طب وابنك فين؟

- خليت قاسم يسلمه للسفارة بما إنه كان عارف طرق يخرج منها لبره المدينة...إنتي بقى ابنك فين؟

- قبل ما أركب القطر سلمته لمريم زميلاتي في الجريدة عشان ترجعه لنجلاء... وكمان سبتلها التمثال...

- وصالح كان فين؟

- موضوع طويل مش قادرة أحكيه.

- هو أنتِ كسولة دنيا وآخرة؟!

- سيبك من كل ده وقوليلي، عانيتي هناك من اللي شوفتيه؟

قالت ضاحكة:

- لأ خلاص نسيت "وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ".